مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمى مراد

قصة

دستويفسكى

الخالدة



نيتوتشكا

الجزء الثانى

فيدور دستويفسكي

نيتوتشكا



NITOTCHKA

PAR

FEDOR DOSTOIVSKY

الثمن ١٢ قرشا

يونيو ١٩٦٢

[illegible]

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثانى والستون

نيتوتشكا

الجزء الثانى

ترجمة : سامى الدروبى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وستون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحوالة بريدية .

ملخص الجزء الاول

تدور أحداث القصة على لسان فتاة روسية تدعى « نيتوتشكا » .. وتبدأ بسرد الأحداث التى وقعت لها منذ كانت طفلة فى التاسعة من عمرها :

« لا أتذكر أبى ، فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات . وتزوجت أمى من موسيقى يدعى « يافيموف » ، يتصف بالغرابة والشذوذ . وكان يعمل فى جوقة أحد ملاك الاراضى الاغنياء كعازف على (الكلارينيت) . ولم يلبث أن تعرف على موسيقى ايطالى علمه العزف على الكمان . فلما أتقن ذلك الفن ، هجر الجوقة معتزما الرحيل الى بطرسبورج . لكنه لم يبلغ هدفه ، اذ نفذت نقوده واضطر الى الالتحاق بجوقات الاقاليم ، وادمن على الشراب، وهجر كمانه ، الى أن جفت موهبته تماما . رغم أنه كان يعتبر نفسه أبرع عازف على الكمان فى العالم !

« وبعد فترة ، التقى بأمى ، التى كانت قد ترملت ، فاعتقد أن الالف روبل التى تملكها كفيلة بأن تحقق أحلامه ، فتزوجها ! .. لكنه استمرأ حياة التسكع والكسل ، وفقد ثقته فى نفسه ، وفى مدى قدرته وموهبته ، فألف الخمول والتعطل .. وسرعان مادب الشقاق بينه وبين أمى ، فكان لا يمر يوم دون أن تنشب فيه بينهما معركة يستخدمان فيها الاوانى الزجاجية وغيرها مما يقع تحت أيديهما !

« ولما كانت أمى هى التى تعمل ، لكى تقيم أود العائلة ، فقد صارت شديدة القسوة والتقتير .. وكنت أرقب

مظاهر الشجار الذى ينشب بينهما وقلبى يتمزق أسى على زوج أمى – (وسألقبه بأبى طوال القصة) – حتى أننى حين طلب منى أن أعطيه بعض نقود أمى ، سلمتها اليه دون تردد ، ثم أدعيت أنها سقطت من يدى فى الجليد !..

وأخيرا حل اليوم الفاصل الذى حضر فيه أبى حفلة أقامها أحد عازفى الكمان الفرنسيين .. وفى تلك الليلة عاد أبى محطما تماما .. لقد قارن – فى نفسه – بين موهبة ذلك الفرنسى وموهبته التى أصدأتها قلة المران .

وفى تلك الليلة ماتت أمى ، فجمع أبى حاجياته فى ارتباك، ودعانى للرحيل معه .. وفى منتصف الطريق خدعنى ، ولاذ بالفرار .. فانطلقت أركض خلفه ، وأنا أبكى وأصيح مناشدة اياه أن ينتظرنى .. لكنه ابتعد مسرعا وتركنى مغشيا على !

ولما أفقت وجدت نفسى فى منزل أحد الامراء ، وكان قد سمع كثيرا عن أبى ، فلما أغمى على أصطحبنى الى داره . ولم يلبث أن علم أن بعضهم قد عثر على جثة أبى ملقاة فى أحد الازقة ، فلاطفنى وأحاطنى بحدبه ورعايته ، ونشأنى فى منزله مع ابنته « كاتيا » التى كانت فى سنى .

وبمرور الايام شغفت بكاتيا شغفا شديدا ، بلغ حد الافتتان .. ولم تلبث علاقتنا أن تطورت الى ملازمة مستمرة ، فريدة فى بابها ، تتخللها نوبات من الصدود والوصال ، والاعراض والاقبال .. »

والآن تستطيع أن تواصل القراءة :

- ٦ -

كان أعراض كاتيا عنى فى أول الأمر قد أرهقنى ، الا أن كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ، حتى صرت لا أعرف ما أشعر به . وهكذا أخذت مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ، وأصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألمها ، وتحل محلها آلام حياتى الجديدة .

كان يتفق لى ان أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، واقترب من سرير الاميرة الصغيرة على رؤوس الاصابع ، ثم أظل الى جانب سريرها ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب . وكنت فى بعض الاحيان أجلس على حافة سريرها ، وانحنى على وجهها أتنسم انفاسها الدافئة . وفى رفق ، وأنا ارتعد خوفا ، اقبل يديها ، وكتفيها ، وشعرها ، وقدميها — حين تبرز قدماها من تحت الغطاء — ولاحظت شيئا فشيئا (وكان نظرى لا يفارقها منذ شهر !) ان كاتيا تزداد وجوما ، يوما بعد يوم ، وان مزاجها يزداد تقلبا ساعة بعد ساعة ، فها هى اليوم تقضى النهار كله لا يسمع لها صوت ، وهاهى فى الغد تحدث صخبا أقوى من كل ماأحدثت قبل ذلك من صخب ! .. وهى الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتغضب فى كل لحظة ، وسلوكها نحوى لايخلو

من شراسة وقسوة . وفجأة ، أصبحت ترفض أن تتناول الطعام معى ، وأن تجلس الى جانبى ، كانماهى تشمئز منى!

.. ثم صار يتفق لها أن تمضى الى غرفة أمها تقضى معها النهار كله ، ربما لانها تشعر أننى أتحطم حزنا فى غيابها . وفجأة ، أصبحت تحدق فى ساعات طويلة ، فيصرعنى الاضطراب صرعا ، وأحمر وأصفر ، ثم لا أدرى ماذا أصنع بنفسى ، ولا أجرؤ على أن أدع الغرفة ..

وشكت كاتيا ، مرتين ، من الحمى – وهى التى لم تمرض قبل ذلك أبدا ! – وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن فى الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم فى الطابق الاسفل مع أمها . وكادت أمها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابها الحمى . وينبغى أن أذكر أن الأم كانت حانقة على ، فهى تعزو الى جميع التغيرات التى لاحظتها فى سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجى الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها . ولئن لم تفضل احدانا عن الاخرى منذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد . كان زوجها يسايرها عادة فى كل أمر ، الا انه فى بعض الاحيان كان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رأيه .. وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم .

وهكذا كان لانتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقع

الصاعقة على نفسى ، فقضيت أسبوعا كاملا فى لوعة مبرحة . وأخذت أحطم رأسى بحثـــا عن سبب الكره الذى تحمله كاتيا لى !..

كان الحزن يمزقنى تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنها فى نفسى الجريحة ، وأخذ يجتاحنى شعور بالاستياء والاستنكار . وخالجنى فجـــأة نوع من العزة ، حتى اذا خرجت مع كاتيا فى ساعة نزهتنـــا ، رأيتنى أنظر اليها فى كبرياء وجد لم تعهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشـد الدهشة . طبيعى ان هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليزول ، بحيث كان قلبى سرعان ما يخفق خفقانا شـديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا ووجلا منى فى أى وقت مضى !

وأخيرا ، ذات صباح ظهرت كاتيا فى الطابق العـلوى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع فى نفسى اضطرابا فرحا . انها تسرع الى التعلق برقبة مدام ليوتار ، وهى تضحك ضـحكا صاخبا ، وتنبئها بأنها عائدة الينا . ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة فى هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلعب . لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح .

.. غير أنها هدأت فى المساء ، واذا هى واجمة تفكر ، ثم اذا بالحزن يلقى ظله على وجهها الجميل . وحين صعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهـدها أن

تظهر مرحة . وما أن مضت أمهـــا ؛ حتى انفجرت باكية . وتأثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذ لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت . ان أزمة لم تكن فى الحسبان تتهيأ فى نفسها . واســـتدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقرير يومى عن كل ما يتصل بابنتهـــا تفصيلا . وأمرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة !

.. لكننى كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أملا ورجاء. ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها.. فبعد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحنا ، رأيتها تنظر الى طويلا بعينيها الرائعتين . والتقى بصرى ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلا منا يشعر بانه مخطىء فى حق الآخر . واخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك . ودقت الساعة الثالثة ، وألبسونا ثياب النزهة ، فاذا بكاتيا تقترب منى فجأة وتقول :

ـ لم يربط حذاؤك جيدا . دعينى أربطه ..

فاحمر وجهى احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتنى أخيرا ، وأردت أن انحنى لأتولى ربط حذائى بنفسى ، فقالت كاتيـــا وهى تضحك :

ـ دعينى أربطه .

ثم انحنت ، وأمسكت قدمى رغما عنى ، فوضعتهما على

ركبتها وأخذت تربط الحذاء .. فاجتاحنى خوف عذب ، جعلنى ألهث ، ولا أستطيع لانفعالى حبسا .. فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ، أخذت تنظر الى من الرأس الى القدمين .

.. ثم قالت وهى تلمسنى بأطراف أصابعها :

– والعنق غير مغطى . دعينى أصلح ربط الوشاح ..

ولم أحتج ، وفكت كاتيا وشاحى ، ثم لفت به عنقى على طريقتها ، وأعادت ربطه .. ولم تلبث أن استطردت :

– والا فقد تصابين بزكام .

قالت ذلك وهى تبتسم ، وتنظر الى بعينين ســـوداوين مغرورقتين .

أما أنا فكنت فى حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لى ، ولا أفهم شــيئا ممـا يجيش فى نفس كاتيـــا .

وكانت نزهتنا قصيرة لحسن الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسى عن الارتماء على عنقها وتقبيلها فى عرض الشارع !.. واستطعت مع ذلك ، ونحن نصعد السلم ، أن أختلس قبـلة على كتفها . ولاحظت هى ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقـل شيئا . ولما أتى المساء ألبسوها أجمـــل حلة ، وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لتشترك فى استقبال الزائرين ..

..غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال .

ذلك ان نوبة عصبية ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شديدا ، واستدعت الطبيب . وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هذه النوبة ، طبعا ، الى اضطرابات السن ، الا اننى كنت أعلم أن حالة كاتيــا ترجع الى سبب آخر . وعادت كاتيا فى صباح اليــوم التالى الى طبيعتها ، متــوردة الخدين ، مرحة المزاج ، تفيض صحة ونشاطا ونزوات .

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة العجــوز . ووافقت الاميرة العجوز أن تأتى اليها كاتيا ، على خلاف عادتها ــ فقد كانت العجوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطــاع وترفض أن تراها ! ــ وبدا الانسجام بين العجوز وكاتيــا على أحسن ما يرام ، خلال الساعة الاولى من لقائهما ، فان الشيطــانة الصغيرة أخذت تستغفر العجوز عن أخطــائها ، عن كثرة حركتها وصخبها ، عن تعكيرها صفاء الآنسة عمتها . فترقرقت الدموع فى عينى الاميرة العجوز ، وغفرت لها أخطاءها فى لهجة رصينة وقورة . ومضت كاتيا الى أبعد من هــذا (وكانت تعتز بشقاوتها) فزعمت للعجوز أنها نادمة على خطــاياها ، تريد أن تصلى وأن تصــوم وأن تضرع الى الله . فارتاحت الاميرة التقية لهذه التوبة ، وشعرت فى أعمــاقها بكثير من

الزهو . لقد استطاعت أن تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفسها ترضخ لجميع نزواتها وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الخبيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطاقة على ثوب السيدة العجوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميع كتبها لتضع فى مكانها روايات فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشترى متفجرات ترميها على أرض غرفتها ، وأن تدس فى جيبها مجموعة من ورق اللعب .. اعترفت بأنها كانت تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة كل منها أنكى من أخيه وأفدح . فما ان سمعت الآنسة العجوز هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصفرت واحمرت سخطا وغضبا ، ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة . ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنة أخيها على الفور . وكانت قصة . ظلت الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمتها ، والدموع فى عينيها ، أن تصفح عن كاتيا ، وأن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى أن الطفلة مريضة . الا أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع شيئا ، وصرحت أنها ستغادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت الاميرة عهدا على نفسها أن تنزل

بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى أبلت من مرضها . وفى انتظار ذلك أنبت كاتيا تأنيبا شديدا . واقتيدت الى تحت ، الى جناح أمها . غير أن المذنبة الصغيرة استطاعت أن تفر بعد العشاء . لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورأيتها تشق الباب ، وتدعو « فالستاف » . ففهمت على الفور أنها تدبر انتقاما فظيعا . واليكم التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » . وكان فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب أحدا . انه حيوان مغرور ، صلف ، الى أبعد حدود الغرور والصلف . كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه كان يقتضى الجميع احتراما يراه من حقه . والواقع ان كل من فى البيت كان يوفيه حقه هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة . **ولكن الوضع اختلف كل الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز . لقد أهين فالستاف عندئذ أفظع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجناح الاعلى !**

وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظل أسبوعا كاملا يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجناح الاعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب اقصائه ، حتى اذا جاء يوم الاحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق

الانفس . وأصبحوا لا يمنعونه منعا باتا من الصعود الى الجناح الاعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعد مكان ممكن . لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد . ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحانق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات ، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات انسلالا حتى يصل الى مخدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقا لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيرا مرعبا ، الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسفل . أما الاميرة العجوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلخ جلده ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر . وأرسلت العجوز عدة مرات انذارا الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها .

ذلك أن فالستاف كان أحب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها ، واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عودته من نزهته ، بكلب قذر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب . لقد أنقذ الامير

البيت ، ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل . وصار يحق له أن يستقر فى حجرة الاميرة على جلد فاخر من جلود الدببة ، وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضة سريعة قاسية ، وحين علمت أن اثيرها هـذا يدعى « فريسكا » استاءت استياء شديدا وبحثت له ، فورا ، عن اسم جديد ، حرصت على أن يكون من أسماء الاقدمين ، ما أمكن ذلك . الا ان أسماء مثل اسم « هكتور » أو «سربير» كانت شائعة مبتذلة ، وكان لا بد من ايجـاد اسم أليق . واقترح الامير أخيرا ، لما يتصف به فريسكا من شراهة قوية ، أن يسميه « فالستاف » .. وسرت الاميرة بهـذا الاسم بل تحمست له . وكان سلوك فالستاف سلوكا لا غبار عليه . كان صامتا وقورا كانجليزى حقيقى ، لا يتقدم أول المتقدمين أبدا ، ولا يطلب من الجميع الا أن يخـلو له مكانه على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم . وكأن ذكريات كانت توافيه فى بعض الاحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : **كان فى تلك اللحظات يفكر فى الثأر من عدوته اللدود التى جرؤت أن تفتات على حقوقه ، ولم يستطع أن ينتقم منها حتى الآن .. فكان اذا ألفى الباب مغلقا ، قبع فى ركن قريب ينتظر - مخاتلا - مجىء أحد يدع الباب من ذهوله مواربا . وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة أيام طوالا !**

هذا الكلب من الموت . ولما كان القادم الجديد شرس الطبع فظا ، فقد أمرت الاميرة بأن يربط فى ساحة المنزل . ولم يعترض الامير على ذلك ..

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط « ساشا » - أخو كاتيا - فى نهر (نيفا) على حين غرة . فأخذت الاميرة تصرخ ، ورمت بنفسها فى النهر . ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كثير من العناء . أما الطفل ، وقد جرفه تيار النهر السريع ، فقد ظل عائما على سطح الماء بفضل ثيابه الطافية . وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين أن يمضوا به الى الطفل . ولكن كان لابد من معجزة للعودة بالطفل حيا .. **وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتمى فى الماء ، ويمضى قدما نحو الامير الصغير الذى يوشك أن يغرق ، فيقبض عليه بأسنانه ، ويعدو به الى الشاطىء ظافرا .** وترتمى الاميرة على الكلب المبلل تقبله ، الا أن فالستاف (وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا») كان فى ذلك الحين لا يطيق المداعبات ، فرد على مداعبات الاميرة وعلى قبلاتها بعضة فى كتفها عميقة جدا . وقد ظلت الاميرة ، تحس هذا الجرح خلال حياتها كلها ، الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف الشكر والامتنان . وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالستاف بالتجول فى أجنحة

– فالستاف ، فالستاف .

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كاتيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ، فى رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم .

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فتهيأ لاجتياز العتبة . غير أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض فى أول الامر أن يصدق أذنيه ، انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب مفتوحا ، مضى الى النافذة، ووضع قائمتيه الجبارتين على حافتها ، وجعل يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل جمال عمارة قريبة .

كان الترقب يملأ قلبه بشرا ورجاء . تصوروا اذن أية دهشة كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ، ودعى الى الدخول ، بل ضرع اليه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرح ، وشمر شفتيه ، ثم مرق كالسهم بوثبة رهيبة ظافرة .

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيا اعترض فالستاف فى طريقه ، فطار الكرسى حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار كما يدور الخذروف (النحلة) . كان

فالستاف يمرق مروق قنبلة خرجت من مدفع . وصرخت مدام ليوتار مذعورة ، الا أن فالستاف كان قد بلغ الباب الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه . ولم يستطع أن يفتحه ، فجعل يعول عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما أجابته العجوز بعويل كعويله . ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكى الكلب كمامة ، وأن يكبلوا قوائمه الاربع ، وأن يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل على حال من الهوان يرثى لها .

واستدعيت الاميرة .

ولم تكن المسألة فى هذه المرة مسألة تعلل أو اعتذار . ولكن من ذا الذى يجب ان يعاقب ؟ فهمت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة ألقتها على ابنتها . لا مجال للشك . **ورأيت كاتيا ممتقعة ترتعد خوفا . فى تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها .** كان يمكن أن تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن تعترف بالحقيقة كلها .

سألتها أمها فى صرامة :

ـ هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتنى صفرتها ، فما رأيتنى الا وانا أتقدم الى امام ، وأقول بصوت جازم :

– أنا التى تركت « فالستاف » يمر !

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتى بتأثير النظرة المتوعدة التى ألقتها على الاميرة :

– ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ..

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

– مدام ليوتار ، انزلى بها العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة .

نظرت الى كاتيا . كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها ، واحنت رأسها الشاحب .

كانت العقوبة الوحيدة التى تنزل بأولاد الامير هى أن يحبسوا فى غرفة فارغة . ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ، فى ذاته . ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ، زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو من شدة . اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو يحبس أخوها خلال ساعتين . أما أنا فقد حددت عقوبتى بأربع ساعات ، لفداحة ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحة مسرورة . كنت أفكر فى الاميرة الصغيرة ، واعلم أن النصر لى ، ولكننى بدلا من أن أبقى أربع ساعات ، بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح . واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت فجأة لدى وصولها من موسكو ، وأنها تريد أن تراها . فتركت البيت دون أن تفطن الى وجودى فى السجن . وظنت الوصيفة التى كانت تهتم بأمرنا أنه قد أطلق سراحى ، كما أن كاتيا استدعيت الى أسفل ، وظلت الى جانب امها حتى الساعة الحادية عشر مساء . ودهشت كاتيا حين عادت فوجدت سريرى فارغا . وجردتها الوصيفة من ثيابها وأضجعتها فى سريرها ، ولم تشأ الاميرة الصغيرة أن تسأل عنى ، وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدنى متى انتهت ساعاتى الاربع فى السجن . الا أن ناستيا كانت قد نسيتنى ، ولا سيما أننى أتولى خلع ملابسى دائما بنفسى . وهكذا قضى على أن أقضى الليل فى السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب ، ولاحظت أنهم يحاولون فتحه عنوة . كنت نائمة على أرض الغرفة ، فصرخت جزعة ، الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت

كاتيا ، وكان يعلو جميع الاصوات ، ثم سمعت صوت مدام ليوتار ، فصوت ناستيا مذعورة ، ثم أصواتا أخرى . وفتح الباب أخيرا ، ورأيت مدام ليوتار تبكى ، ثم تقبلنى ، وتطلب الى أن أغفر لها أنها نسيتنى ، فألقيت ذراعى على عنقها باكية ، وكنت أرتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض ، وشعرت بألم ينفذ الى عظامى . ونظرت أبحث عن كاتيا ، الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها . وحين عدت الى الغرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم . لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تنتظرنى ، ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح ، فلما لم ترنى فى سريرى جن جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة ، وأيقظت الخادمة ، والوصيفات ، لاطلاق سراحى .

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى ، حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود . أما الامير فقد رأيته ، لأول مرة فى حياتى ، غاضبا : فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون اهتياجا، وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

— ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هذه الصغيرة البائسة ؟ هذا عمل وحشى ، هذا عمل غير انسانى . طفلة ضعيفة مريضة ،

خيالية الى هذا الحد ، جزعة الى هذا الحد ، تحبسينهـا فى غرفة مظلمة طوال الليل كله ! تريدين اذن قتلهـا ! هـذه وحشية هائلة ، هذه قسوة فظيعة ، أقول لك هذا بلا مواربة، وكيف تسمحون لأنفسكم بانزال مثل هـذه العقوبة ؟ من ذا الذى جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينة ــ وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدمـــوع ــ ان تشرح القضية من أولها الى آخرها ، فاعترفت أنها نسيتنى بسبب وصـول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هذه العقـوبة حسنة فى حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روسو نفسه قد دعا الى شىء من هذا القبيل .

ــ جان جاك روسو ؟.. جان جاك روسو لم يقل شيئا من هذا . وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتى . جان جاك روسو لا يحق له ان يتكلم فى التربية ، كلا ، لا يحق له . جان جاك روسو أهمل أبناءه أنفسهم ، ياســـيدتى . جان جاك روسو حقير ، يا سيدتى .

ــ جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا ســيدى الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم .

كانت مدام ليوتار امرأة طيبة ممتـــازة ، تكره أن تغضب

أكثر ما تكره . ولكن حين يمس أحد الاثيرين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد فى « كورنى » أو « راسين » ، حين ينتقد أحد « فولتير » ، أو حين يعد « جان جاك روسو » حقيرا ، فان الكيل عندئذ يطفح !

وتفجرت الدموع من عينى مدام ليوتار سخينة سخية ، وأخذت ترتجف من شدة الانفعال .

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :

- انك تنسى نفسك ، ياسيدى الامير .

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب منى فقبلنى قبلة تفيض بحنان عميق ، وحرك يده باشارة الصليب ، ثم انصرف .

- مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا . ثم جلسنا الى الدرس .

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة . وقبيل الذهاب الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الى وقد امتلأت نفسها حماسة وارتسمت على ثغرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كتفى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خجلى بعض الشىء :

- اذن فأنت قد تحملت العقاب من أجلى ؟ اسمعى . سنلعب بعد العشاء فى القاعة الكبيرة .

ومر شخص بجانبنا ، فابتعدت الاميرة الصغيرة مسرعة .

***

وبعد العشاء ، عند الفسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد أمسكت كل منا بيد الاخرى . كانت الاميرة تعانى انفعالا بلغ من العمق أنها بدت تغص بأنفاسها . وشعرت أنا بفرح وسعادة يندر أن أشعر بمثلهما .

فلما وصلنا الى القاعة قلت :

ـ هل تحبين أن تلعبى بالكرة ؟ قفى هنا .

وأوقفتنى فى احدى زوايا الصالة . الا انها بدلا من أن تبتعد، وترمى الى بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطوات منى ، ونظرت الى ، فاحمر وجهى ، ثم اندفعت نحو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين يديها . وتحركت نحوها . فظنت أننى أهم أن أمضى فقالت :

ـ لا تذهبى يا نيتوتشكا . ابقى معى .

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمرت وجنتاها وترقرق الدمع فى عينيها ، فارتمت على عنقى مسرعة . كانت وجنتاها كالنار حرارة ، وكانت شفتاها كالخوخ حمرة وتورما ، وكانت خصلات شعرها مضطربة .. وأخذت تغمرنى بقبل محمومة مجنونة : على الوجه ، على العين ، على

الشفتين ، على الخدين ، على اليدين . كانت تشهق وتنتحب كأنها فى نوبة عصبية . وضممتها الى صدرى ضما قويا ، ثم ظللنا متعانقتين فى حنان ، كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد . وكان قلب كاتيا يخفق خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته .

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوى فى الغرفة المجاورة . ان الاميرة أرسلت تستدعى كاتيا . .

ــ آه ، نيتوتشكا . الى اللقاء فى هذا المساء ، فى هذه الليلة . اصعدى . انتظرينى فى الطابق العلوى . .

وقبلتنى قبلة اخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تستجيب لنداء « ناستيا » . صعدت مسرعة كمن بعث الى الحياة بعد موت ، فارتميت على « الديوان » وأغرقت رأسى فى وسادة ، وأخذت أشهق من شدة الفرح . كاد قلبى يشق صدرى من شدة الخفقان . لا أتذكر الآن كيف استطعت التذرع بالصبر الى الليل . وأخيرا دقت الساعة الحادية عشرة ، واضطجعت فى سريرى . . ولم تعد كاتيا الا فى منتصف الليل . فتبسمت لى من بعيد ، دون أن تنبس بكلمة ، وكانت ناستيا كأنها تتعمد البطء فى تجريدها من ثيابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

ــ عجلى ، ياناستيا ، عجلى .

ــ ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا . لاشك

انك صعدت السلم عدوا .

ـ هوه ! ناسـتيا . انك تزعجيننى . عجلى . قلت لك عجلى .

وضربت برجلها الارض مغتاظة .

قالت ناستيا وهى تقبـل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتها من حذائها :

ـ هذا القلب الذى يخفق !

وانتهى أخيرا كل شىء : اضطجعت كاتيـا على سريرها ، وخرجت ناستيا من الغرفة . وفى طرفة عين ، رأيت كاتيـا تخرج من سريرها ، وتثب الى ، فما أن لمستنى حتى انطلقت من صدرى صرخة .

ـ هيا . تعالى . تعالى الى سريرى . أسرعى .

أمرتنى بذلك وهى تنهضنى . وما هى الا لحظة حتى كنا فى سريرها متعانقتين أضمها وتضمنى ضـما قويا . كانت قبلات كاتيا تخرج من أعماق روحها .

قالت وقد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

ـ هل تعلمين اننى رأيتك حين قبلتينى فى الليل ؟

وطفقت أشهق .

.. بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها :

ـ نيتوتشكا ، عزيزتى ، اننى أحبك منذ زمان طويل ، هل

تعلمين ؟ هل تريدين أن أقول لك منذ أى يوم ؟

ـ منذ أى يوم ؟

ـ منذ اليوم الذى أمرنى فيه أبى أن أعتذر اليك .. منذ ذلك اليوم الذى أردت فيه ان تدافعى عن أبيك ، يا نيتوتشكا ..

وأردفت تقول وهى تغمرنى بالقبل ، وتضحك فى آن واحد :

ـ يتيمتى العزيزة ..

ـ كاتيا !

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ظللنا طوال هذه المدة .. طوال هذه المدة ..

ولم أستطع أن أتم كلامى . وتعانقنا . وخيم الصمت ثلاث دقائق طوالا .

ـ ما كان رأيك فى يا نيتوتشكا ؟

ـ آه ، يا كاتيا . كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فيك ، ليل نهار .

ـ وكنت فى الليل تتكلمين عنى . سمعتك .

ـ مستحيل .

ـ بلى ! وما أكثر ما بكيت .

ـ اذن لماذا كنت، قاسية كل هذه القسوة ؟

ـ كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا . هـــذه الحماقة تتملكنى أحيانا . ولا أستطيع لها دفعا . كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الامر .

ـ لماذا كنت حاقدة على ؟

ـ لا لسبب . لاننى شريرة . ثم لأنك أحسن منى . ثم لأن أبى يحبـك كثيرا . ان أبى انسان طيب جدا ، الا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

ـ أوه . بلى . بلى .

قلت ذلك ، وقـــد ترقرق الدمـع فى عينى ، على ذكر الامير .

وأضافت كاتيا ، فى لهجة رصينة :

ـ انه انسان طيب جـــدا .. ثم اننى حين طلبت اليك الصفح ، كنت على وشك أن أبكى .. وبسبب هذا أيضـــا حقدت عليك .

ـ نعم . لاحظت ذلك . لاحظت أنك تودين لو تبكى .

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

ـ أسكتى . أنت نفسك تميلين للبكاء . اسمعى . آه . لقد أحببتك حبا قويا . ولكن ، فجـــأة ، رأيتنى أكرهك ، أكرهك كرها ، هل تسمعين ؟

ـ لماذا ؟

ـ لا لسبب . كنت حاقدة عليك ، لا أدرى لماذا ! ولاحظت انك لا تستطيعين أن تعيشى بدونى . فقلت فى نفسى : لأعذبها قليلا ..

ـ آه . كاتيا .

وأردفت كاتيا تقول ، وهى تقبل يدى :

ـ حبيبتى .. ثم قررت أن لا أكلمك أبدا . هل تذكرين يوم داعبت فالستاف ؟

ـ آه . لشد ما خوفتينى !

ـ ولشد ما خفت أنا أيضا . هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك كنت تنظرين الى . حين رأيت انك تنظرين الى .. قلت فى نفسى : ليكن ما يكون .. وجازفت .. ألم تخافى خوفا شديدا ؟

ـ خوفا فظيعا !

ـ لاحظت. لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف. رباه !.. ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد .. هذا الغول !

ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضـــحكة عصبية . وفجأة ، رفعت راسها المحموم ، وأخذت تحدق فى . كانت

دموع كاللؤلؤ ترتجف على حافة أهدابها الطويلة .

ـ ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة . وشعرك الزاهى قبيح . وانت غبية .. وانت بكاءة . نعم يا يتيمتى الصغيرة العزيزة !

وعادت كاتيا تغرقنى بقبلاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقى . انها مضطربة أعمق الاضطراب .

ـ نعم أحببتك كثيرا . ولكنى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا . لن أصارحها . وأصررت على عنادى . لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت خجلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

ـ اننى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى . ان قلبى يوشك أن يتحطم !

ـ نيتوتشكا . اسمعى . نعم اسمعى . ولكن قولى : من أسماك نيتوتشكا ؟

ـ أمى .

ـ ستروين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟

فأجبت فى حماسة :

ـ نعم . كل شىء ، كل شىء .

ـ وأين المنديلان اللذان سرقتيهما منى . وأين شريط

شعرى ؟ لماذا أخذت شريطى ؟ ألا تخجلين ؟ اننى اعرف كل شىء ، هل ترين ؟

وأخذت أضـــحك واحمر وجهى حتى طفرت من عينى الدموع .

واستأنفت كاتيا كلامها :

ــ قلت فى نفسى : كلا . فلتنتظر . يجب أن أعذبها أولا . وكنت أقول لنفسى فى بعض الاحيان : كلا ، اننى لا أحبها ، لا أحبها أبدا ولا أطيق رؤيتها . وبقيت أنت لطيفة وديعـة مثل حمل . آه ! لشد ما كنت أخشى أن تعدينى بليدة ! ذلك أنك ذكية يا نيتوتشكا ! أنت ذكية جدا ، أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتى تجرح :

ــ لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا فى لهجة رصينة جازمة :

ــ بل أنت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفى ذات صباح ، استيقظت من نومى وأنا أشد ما أكون حبا ولوعة . لم أطق ذلك ، وكنت قد حلمت بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضى الى أمى أرجوها أن تقبلنى فى غرفتها . كنت أريد أن لا أحبك، نعم ، كنت أريد أن لا أحبك . وفى الليلة التالية ، رايتنى أقول لنفسى وقد اضطجعت فى سريرى : آه .. ليتها تأتى كما أتت فى تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أتظاهر بالنوم فى تلك الليلة .

اليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان أن يكـــون خبيثا ، يا نيتوتشكا !

ـ ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبى ؟

ـ لغير ما سبب . هى فكرة راودتنى . ولكن ماذا أقول ؟ لقد احببتك يا نيتوتشكا ، أحببتك دائمـــا . وكنت أقول لنفسى : سأخنقها بالقبل ، وسأظل اعضها وأقرصـها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها ذلك ، هذه الحمقـــاء الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

ـ هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

ـ أذكر .

ـ كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ اليك ، وأنا اقول فى نفسى : ما ألطفها !.. سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك فى نفسهـــا ! وكنت أنا فرحة . هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك . ولكنى لم أقبلك . وما أكثر ما ضحكت فى سرى بعد ذلك ! نعم ، ما أكثر ما ضحكت فى سرى ! طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسى عن الضحك ، حتى اننى لم أستطع أن أنظر اليك ! آه . وما كان اشد سرورى حين كنت فى السجن ! لشد ما أسعدنى أن أشـــعر انك فى السجن من اجلى . هل فزعت ؟

ـ فزعا فظيعا .

— لم يسعدنى انك اتهمت نفسك ، وانما أسعدنى انك فى السجن نيابة عنى . هل تفهمين ؟ قلت فى نفسى : انها تبكى بينما أحبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا . والحق اننى لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، ابدا . ومع ذلك فقد بكيت .

— اما انا فما بكيت . كنت سعيدة جدا !

— ما بكيت ؟ آه منك أيتها المفسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهى تقبلنى قبلة عنيفة .

— كاتيا ، كاتيا . انك لطيفة جدا .

— أليس كذلك ؟ نعم . والآن تستطيعين أن تصنعى بى ما تشائين . تستطيعين أن تعذبينى ، أن تقرصينى . أرجوك . اقرصينى بقوة .

— عفريتة !

— وماذا أيضا ؟

— حمقاء صغيرة !

— وماذا أيضا ؟

— قبلينى .

وتبادلنا القبل ، وبكينا ، وأخذنا نضحك .. وتورمت شفتانا من قوة القبل .

— نيتوتشكا ! ستنامين دائما معى . ثم ، هل تحبين

القبل ؟ اذن أقبلك وتقبليننى . ثم اننى لا أريد أن تكونى حزينة هكذا ! لم أنت حزينة ؟ ستقولين لى كل شيء ، أليس كذلك ؟

ــ نعم ، سأقول لك كل شيء . ولكننى لست حزينة الآن ، اننى فرحة .

ــ كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثلى ! آه . لا أحب أن يأتى الغد . هل أنت تعسة يا نيتوتشكا ؟

ــ كلا .

ــ اذن فلنتحدث . هيا نتحدث .

وتحدثنا ساعتين ، لا أدرى فيم تحدثنا ! شرحت لى كاتيا خططها للمستقبل ، وشرحت لى الوضع الحاضر . علمت أنها تحب اباها أكثر من أى انسان آخر ، أكثر مما تحبنى تقريبا . واتفقنا كلتانا على أن مدام ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، غير قاسية البتة . ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ، وما سنفعله بعد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقل تقدير !.. وارتأت كاتيا أن تجرى الامور هكذا : يوما تأمر وأطيع ، ويوما آمر وتطيع ، ويوما نأمر كلتانا وتتعمد احدانا أن لا تطيع فنتظاهر بالمخاصمة ثم نسارع الى المصالحة . الخلاصة : ان سعادة كبرى انفتح طريقها أمامنا . وأخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما ثرثرنا ، وأطبقت أجفاننا . ونامت

كاتيا قبلى ، مع أنها هزئت بى لأننى كنت أتثـــاءب . وفى الصباح استيقظنا فى وقت واحد ، فتبادلنا قبلة على عجل ، لأننا سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وسارعت الى سريرى .

وطوال النهار كنا من شـــدة الفرح كمن طاش عقـــله . وحرصنا على أن نختبىء دائما فى أقصى مكان ممكن خشية أن يرانا أحد . وبدأت أخيرا اروى لكاتيا قصتى ، فكانت تصغى الى مضطربة الى حد البكاء .

ـ لماذا لم تقصى على كل هذا من قبل ، أيتها الخبيثة ؟ لو قد قصصته على لكنت أحببتك ، لكنت احببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك فى الشارع ؟

ـ جدا . وكنت أخاف ، أكاد أموت من الخوف !

ـ آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة فى الشارع صـبيا يضرب صبيا آخر . غدا سآخذ ســوط فالستاف خفية ، وأمضى الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلدته ، جلدته جلدا . سترين !

والتهبت عيناها حنقا وسخطا ..

كنا نرتجف اذا دخل علينا أحد ، كنا نرتعد خوفا من أن يباغتونا متعانقتين . وتعانقنا فى ذلك اليوم مائة مرة على أقل تقدير . هكذا انقضي اليوم الاول ، فاليوم التالي .

.. الا أن سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليوتار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات ابنتها وكل سكنة من سكناتها ؛ فراقبتنا خلال ثلاثة أيام ، وجمعت فى هذه المدة كثيرا مما يمكن أن يقال .

وأخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها كل ما لاحظته :

ذكرت لها اننا فى نشوة عظيمة ، اننا لا نفترق لحظة من اللحظات ، اننا نتعانق فى كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ؛ اننا لا ننقطع عن الحديث لحظة ، وهذا أمر لم يقع قط من قبل .. وأنها لا تعرف كيف تعلل هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الاميرة الصغيرة تعانى أزمة مرضية ، وان من الافضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا .

وقالت الاميرة :

ـ اننى أفكر فى هذا منذ زمان طويل . كنت أعرف أن هذه اليتيمة العجيبة ستسبب لنا كثيرا من المتاعب . ان ما قصوه على عن حياتها أمر فظيع ، فظيع جدا . ولا شك أنها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا . تقولين ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

ـ حبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الغيظ . ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها نحوى تثير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

ـ عجيب . لقد ظلتا غريبتين احداهما عن الاخرى مدة طويلة ، ويجب أن اعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا . ان هذه اليتيمة ما زالت صغيرة ، غير أنها لا توحى الى بالثقة . هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا مشبوها . لا أفهم تعلق الامير بها . لقد حاولت ألف مرة ان ارسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الامير يرفض ذلك .

وودت مدام ليوتار لو تتشفع لى ، **لكن الاميرة كانت قد عزمت على التفريق بيننا عزما لا يتزعزع** .. فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وأبلغتها أنها لن تراني قبل يوم الاحد القادم، أى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، وصعقت للنبأ ، واعتقدت أن كاتيا لن تحتمل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل . وجاءنى الامير فى الصباح يهمس فى أذنى أن لا أقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا ان يرد الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق أنفاسى ..

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبتها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

« أحبك كثيرا . اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو ان أهرب اليك ، وساتوصل الى ذلك . أعدك وعدا قاطعا . يجب اذن أن لا تبكى . اكتبى الى انك تحبينى . ظللت طوال الليل أحلم بك وأقبلك . لقد تألمت كثيرا ، يانيتوتشكا . أرسل اليك بعض الحلوى . الى اللقاء . »

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها . وظللت طوال النهار أغرق رسالتها بالدموع . وألحت مدام ليوتار فى مواساتى . وبلغنى فى المساء انها ذهبت تقول للامير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، مافى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيا .. وسألت ناستيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة شحوبا رهيبا .

وجاءتنى ناستيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

— اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن .

شعرت أن سعادة تنتظرنى ، فانتعشت روحى ، وأسرعت أعدو على السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته . لم تكن كاتيا هنالك . ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقنى من خلف ، وتأخذ تقبلنى فى عنف وحرارة . وكانت ضحكات ، وكانت دموع .. ثم اذا بكاتيا تنتزع نفسها

منى فجأة ، وتتجه الى أبيها وتتسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها فتتدحرج على « الديوان » هى وأبوها . كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح .

ــ أبت . أبت . كم أنت طيب ! كم أنت نبيل !

ــ أيتها الشيطانتان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ماهذه الصداقة ؟ ماهذا الحب ؟

ــ اسكت يا أبت . انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة أخرى .

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نحلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان وجهها فى هذه الايام الثلاثة ، وأصبحت شاحبة . وحزنت لهذا حتى بكيت .

وأخيرا جاءت ناستيا تقرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون كاتيا . . فامتقع لونها امتقاعا شديدا .

وقال الامير :

ــ كفى ، أيتها الصغيرتان . سنلتقى معا فى كل يوم . فلتودع كل منكما الاخرى الآن . وليبارككما الله .

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا . الا أن الامير قال ماقال دون أن يحسب حساب المفاجئات . **ففى مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو يقول ان « ساشا » مرض فجاة ، وان حياته فى خطر . فقررت الاميرة أن تسافر الاسرة الى**

موسكو فى الغداة . وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ، حتى اننى لم أعلم بشىء الا فى لحظة الوداع . وقد أصر الامير على أن انزل مودعة ، ووافقت الاميرة على مضض . أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ السفر صعقا . وقد عدوت الى اسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا . كانت العربة تنتظر أمام الباب . ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها صرخة ، وسقطت بلا وعى . أغرقتها بالقبل . الا أن الاميرة أمرت بأن ترد كاتيا اليها . وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها . ثم قالت وهى تنفجر فى ضحكة مباغتة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يانيتوتشكا . لا تنظرى الى هكذا . لست مريضة . بعد شهر أعود . ولا فراق بعد ذلك أبدا .

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى . هيا بنا .

الا ان كاتيا التفتت الى مرة أخرى لتضمنى بذراعيها . وهمست وهى تقبلنى :

ـ أنت حياتي كلها . الى اللقاء .

وبعد هذه القبلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، لمدة طويلة جدا . لم ألقها الا بعد ثماني سنين !

* * * * * * * * *

لقد أسهبت – عن عمد – فى قص تلك الفترة من طفولتى، أعنى فترة ظهور كاتيا فى حياتى . ذلك أن تاريخنا لا ينفصل أحدهما عن الآخر . ان روايتها هى روايتى . لكأن القدر قد شاء أن تجد احدانا الاخرى . لذلك لم أستطع أن أمتنع عن لذة التوقف على ذكريات هذه الفترة من طفولتى . وسأسرع فى سرد مابقى مما أريد سرده .

أصبحت حياتى بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت .. (لم أستيقظ منها الا فى نحو السنة السادسة عشرة من عمرى ، ان صح التعبير ، كما سيجىء البيان ..)

ولكن لا بد من قول بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو .

بقينا أنا ومدام ليوتار وحدنا .

وبعد خمسة عشر يوما جاء رسول من الامير يبلغنا أن عودة الاسرة قد أرجئت الى حين . ولما كانت مدام ليوتار لا تستطيع أن تذهب الى موسكو ، لاسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير . الا انها ظلت فى خدمة هذه العائلة نفسها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » .

،، وانا لم أتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا – وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة – وهى ابنة

الاميرة من زواج أول . ولم يكن محتد الاميرة بالمحتد الرفيع ، ولا كان أهلها من وجوه الناس فى المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجها الاول سوى تاجر خمور . وحين تزوجت مرة أخرى لم تعرف ماذا تصنع بابنتها من الزوج الاول . لم تكن تأمل لها زواجا ممتازا ، لان المهر الذى يخصها كان ضئيلا . وأخيرا استطاعت الاميرة منذ اربع سنين أن تزوجها من رجل غنى ذى مكانة ، فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير حلقة أمها ، وأصبحت تلقى اناسا يختلفون كل الاختلاف عمن تلقاهم أمها . وكانت الاميرة تزورها مرتين فى السنة ، كما كان الامير ، زوج أمها ، يأتيها بكاتيا مرة فى كل أسبوع . **ولكن الاميرة أصبحت فى المدة الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى أختها ، فكان الامير يأخذها اليها خفية . وكانت كاتيا تحب أختها حبا عظيما ، رغم أن طبع كل من الاختين كان نقيض طبع الاخرى على وجه مستقيم !**

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة فى الثانية والعشرين من عمرها ، ناعمة رقيقة وديدة ، يظلل وجهها نوع من الالم الخبىء . على أن الوقار والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة أكثر مما توافق الطفلة ثياب الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها بحب عميق .

ومن فرط شحوبها قبل يوم رأيتها لاول مرة أن بها استعدادا للاصابة بمرض السل .

وهى لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء . وأذكر اننى حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت منى وقبلتنى فى كثير من العطف والحنان . وكان فى صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم ، فما أن رآنى حتى أخذ يبكى . انه العازف على الكمان «ب» . **وطوقتنى الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتنى هل أحب أن أعيش فى بيتها وأن أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتى ، فاذا بى ارتمى على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعانى مرة أخرى بكلمة ((يتيمة))** .. وعندئذ أرتنى الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم بضعة أسطر ، موجهة الى ، قرأتها وأنا أجهش ببكاء عميق . كان الامير يباركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الى أن أحب ابنته الكبرى . وقد كتبت كاتيا بضع كلمات أيضا فى حاشية الرسالة ، تذكر فيها انها الآن لا تفارق أمها .

وهكذا وجدتنى ، فى ذلك المساء ، فى كنف أسرة أخرى ، فى منزل آخر ، بين وجوه جديدة !.. وانتزع من قلبى ، مرة ثانية ، كل ما كان عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى . لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد وفى نفسى غم عميق ..

والآن تبدأ قصة جديدة .

- ٧ -

سارت حياتى الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، فى جو من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من الاديرة !.. فقضيت بين أحضان هذه الاسرة الجديدة ثمانى سنين لا أذكر أنه اقيمت خلالها حفلة ساهرة ، أو دعى ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب او أصدقاء أومعارف ، اللهم الا مرة أو مرتين !.. وفيما عدا شخصين او ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيماعدا الموسيقى «ب» صديق الاسرة، وفيما عدا الاشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يغشى المنزل أحد . وكان هذا الذى أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته فى خارج البيت . وكانت علاقاته هذه كثيرة خطيرة لا يستطيع اهمالها ، وتضطره الى الظهور فى المجتمع الراقى . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ، فقد كان يعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدى رصين ، سيما وانه يحتل مكانة مرموقة للغاية . كان الحظ والنجاح يبتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ،

بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا فى مقابل ذلك يضنون بهذا الحب على امرأته . لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش فى عزلة تامة ، وكانت تجد فى هذه العزلة راحة ولذة ، كأن طبعها الهادىء قد فطر على حب الانزواء .

وقد تعلقت بى تعلقا قويا صادقا ، وأحبتنى كأننى ابنتها. أما أنا فقد ارتميت فى أحضان هذه الام الرءوم فى ظمأ شديد، عاجزة عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا .. ولم يفتر هذا الحب العنيف الذى منحتها اياه لحظة واحدة بعد ذلك . كانت لى أما وأختا وصديقة ، أو كانت بمثابة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب . وقد عنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كنفها . ثم اننى أدركت منذ البداية ، بنوع من الغريزة أو الحدس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهذه الحرية الظاهرة ، وهذه الابتسامة الرائقة الصافية التى تضىء وجهها فى غالب الاحيان. وكنت فى كل يوم أزداد فهما للقدر الحزين الذى تعيشه (وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا فى بطء ومشقة) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة ..

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة . وكان وجهها يضىء

بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرائى لاول مرة لم يحسب أن فى وسع أى نوع من أنواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة !.. ثم انك اذا رأيتها أدركت أنها لا يمكن ان تكره أحدا مهما يكن شأنه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفسها على مشاعر الكره . ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة ..

وعلى أنها رغم كونها قوية العواطف شديدة التأثر ، كان يبدو أنها تخشى مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم !.. وكنت فى بعض الاحيان أرى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة تعذب ضميرها ، وتحز فى قلبها .. كأن شرا مستطيرا يهوم فوق سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها !.. كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت حياتها أهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها ، وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة . وكان ذلك يراودها فى نوبات قاسية ، بحيث لا أذكر أن شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه السنين الثمانى دون أن ينتابها شيء من ذلك !..

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جهتها تكن له حبا يقرب من العبادة ! .. ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائى ، من اول نظرة ان بين الزوجين امورا

خفية . كان ثمة سرا يحوم فوق حياة هذه المرأة .. أو ذلك على الاقل ماقدرته فورا !

***

وقد أوحى الى زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور مؤلم لم تزده السنون الا تفاقما . كان رجلا نحيلا طويلا ، خيل الى كأنه يخفى عينيه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين . وكان فاتر المزاج ، قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته . كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الى البتة ، وكنت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير من الضيق والحرج ، حين يتفق ان نحتسى الشاى جميعا فى صالة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت اضطرب واغتنم ، واختلس النظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأشعر انها ترتجف . كانت ازاءه تراقب كل حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته أكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت فى بعض الاحيان تحمر فجأة ، كأنما هى تدرك فى كلامه غمزة ما أو تلميحا ! .. وأدركت أن حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه دقيقة واحدة ،

ولشد ما ادهشنى انتباه هذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حركة من حركاته ! .. كانت تحاول أن تجاريه وترضيه فى كل امر ، كأنما هى ترى نفسها عاجزة عن تحقيق مايحب . كانت كأنها تستجدى رضاه استجداء : تكفيها ابتسامة باهتة تطوف فى وجهه ، او كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفتيه ، حتى تفيض نفسها بشرا وغبطة وسعادة .. فكأنها ترتد عندئذ الى الدقائق الاولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ..

وكانت تحيط زوجها بجميع انواع الرعاية والعناية التى يحاط بها مريض من المرضى . ومعذلك كانت ، متى عاد الى حجرته بعد أن يصافحها وينظر اليها نظرة متلطفة شاقة ، تتبدل تبدلا كبيرا ، فتصبح حركاتها واقوالها أكثر مرحا واكثر انطلاقا .. غير ان ذلك لم يكن يحدث فورا ، فانها فى كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتأخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التي وجهها اليها ، وكثيرا ما كانت تلتفت الى وتسألني : هل هذا ماقاله بطرس الكسندروفتش ؟ .. كان واضحا انها تبحث في اقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لابد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تثق كل الثقة

من أنه لا يحقد عليها البتة ، وأنها قلقت بغير ماداع الى القلق ، فاذا هى بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هى تقبلنى وتضحك معى، أو تجلس الى البيانو فتظل تعزف -ارتجالا- مايقرب من ساعتين ..

وفى بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكى على حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، أسرعت تقنعنى همسا ، مخافة أن يسمعها أحد ، بأن دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وأن على أن لا أقلق .

وفى أحيان أخرى ، أثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه أشد القلق ، فترسل احدى الخادمات تسأل عما يفعل : كانت فى حاجة لان تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهلم جرا .. كانت كأنما لا تجرؤ أن تفاتحه فى موضوع أعماله ومشاغله ، وكان اذا أسدى اليها نصيحة أوطلب اليها شيئا، تصغى اليه فى خضوع وذل ، كأنها خادم أو عبد . وما أشد فرحها حين يجود عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، أو شىء صنعته بيديها ، أو ما الى ذلك ، كان ذلك يرفع رأسها ويغرقها فى بحر من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له - وذلك أمر نادر - أن يداعب أحد طفليها الصغيرين : كان وجهها

يتبدل عندئذ تبدلا كبيرا ، فيشرق بسعادة عظيمة ، تتجاوز فى تلك اللحظات حدود المرح التى تسمح لنفسها بها أمام زوجها ، فاذا هى مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعا) أن يسمع قطعة موسيقية جديدة وصلتها مؤخرا ، او تبدى رأيها فى كتاب جديد قرأته ، أو تمضى الى أبعد من ذلك فتحب أن تقرأ له صفحة أو صفحتين لمؤلف أعجبها اعجابا شديدا . وكان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل يمضى الى أبعد من ذلك فيبتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجنى حتى أعماق نفسى ــ لا أدرى لماذا ــ كما كانت تزعجنى بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة .. كان يزعجنى فقدان المساواة فى العلاقات بين هذين الزوجين . ولكننى كنت أسكت ، واضبط نفسى ، واكتفى بأن ألاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصغار وعقل الكبار فى آن معا ! .. **وكنت ألاحظ فى أحيان أخرى ذكرى تطوف بخاطره فجأة ، ذكرى شىء مؤلم ، رهيب ــ لا يلأم صدعه ولا يرتق فتقه ــ يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقله ، فاذا هو يتجلد ويتحامل على نفسه ، ثم تزول الابتسامة السمحة من ثغره فى طرفة عين ، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشفقة ،**

فارتعد انا - كأن هذه الشفقة تنصب على ، وكأن شعورا بالعار يغشانى أنا أيضا ! - ويبارح الفرح وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى أو تنقطع القراءة ، وتمسك المرأة المسكينة عن الكلام ، وقد امتقع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من الغم الممض والالم الكاوى ، أحسبها دهرا ! ..

وكان الزوج - أخيرا - يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخنق فى نفسه كل حنق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور فى الغرفة عدة مرات ، فى صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضع كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسى زوجته ، ثم يترك الغرفة.. فتنفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ ، فى بكاء سخين ، أو تغرق فى حزن رهيب لا ينتهى . وكان فى بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قبيل أن ينام ، وكانت هى تقبل دعواته فى احترام واجلال ، بل كان الدمع يترقرق فى عينيها اعترافا بالجميل ..

.. ولكنى لن أنسى تلك الامسيات (أمسيتين أو ثلاثا لا أكثر ، طوال هذه السنين الثمانى !) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا فجأة ، حتى لكأنها شخص آخر ..

فاذا بنوع من الكره ، نوع من الغيظ والحنق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنعومة ، طاردا ذلك الذل الابدى الذى تشعر به ازاء زوجها ، وتلك العبادة الخاضعة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويطفح قلب المراة المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدالانفعال ، وبألفاظ متقطعة مفككة مشحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا تستطيع أن تكبح ألمهما فتنفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش فى نحيب مؤلم كالمحمومة . ليتكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : ليتكم ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان يبلغ من ذلك أنه يأخذ يقبل يديها ، ثم يطفق أخيرا يبكى معها . **الا انها كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من تيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه أن يغتفر له ذنبه : كانت تهولها دموع زوجها ، فاذا هى تزداد لوعة واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يجود عليها به ..**

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الازمات ، فتظل شهورا برمتها لاتنقطع عن البكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام زوجها أكثر خجلا ووجلا وارتعادا منها فى أى

وقت مضى. وكنت لا أستطيع أن أفهم شيئا من هذه الازمات سيما وقد كنت أحمل أثناء ذلك على ترك الغرفة ، فى غير لطف ولا لياقة ! .. على أنه كان يستحيل عليهما أن يخفيا عنى كل شىء . كنت ألاحظ وأحزر، وكان قد استقر فى ذهنى شىء من الارتياب الغامض منذ البداية : **لا بد أن فى أعماق هذه الامور سرا . هذه الازمات المفاجئة التى تعصف بهذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب، لا يمكن أن تنشأ عن مجرد حالة عصبية** .. ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التى يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الخجل الابدى ، وهذا القلق الذليل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هذا الحب الغريب الصامت الذى تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التى تعيشها هذه المراة ، هذا الاحمرار المفاجىء وهذا الاصفرار المفاجىء اللذين يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، **كل هذا لابد أن يكون له سبب !**

ولكن لما كانت هذه الازمات بين الزوجين نادرة جدا ، وكانت حياتنا رتيبة على نسق واحد ، وكنت أعرف جميع تفاصيلها تقريبا ، ولما كنت أنمو بسرعة ، وكانت هنالك أشياء أخرى تثير انتباهى وتشغل اهتمامى رغما عنى ،

فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهــذه الطباع التى تحيط بى . صحيح اننى كنت فى بعض اللحظات لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظـر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، الا ان تأملاتى لم تكن تخلص الى أية نتيجة . كنت أحب الكسندرين ميخائيلوفنا حبا قويا ، وأحترم الحزن الذى يكتنفها ، وأخشى أن أزعجها باستطلاع فى غير محله . على انها كانت تفهمنى .. وكم من مرة شكرت لى تعلقى بها !

وكانت اذا لاحظت قلقى عليها ، ابتسمت من خـلال دموعها ، وأخذت تتندر على كثرة بكائها ، أو أخذت — فى أحيان أخرى — تقول لى ، فجأة ، انها على أحسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حدود السـعادة ، وان جميع الناس يغمرونها طيبا وكرما ، وان جميـع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبهـا هو ان ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسـبب حالات الكرب التى تروادها ، مع انها سعيدة جدا ، جـدا جدا . وكانت تعانقنى عندئذ في كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتي لينخلع قلبى شـفقة ، ان صح التعبير .

رباه ، لن تمحي قسمات وجهها من ذاكرتي يوما ، انهـا

قسمات قويمة يزيدها نحولها وشحوبها جمالا وفتنة . أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد ـ بحكم منطق الاضداد ـ من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عينى طفل ، ورقة بسمتها الخجلى ، وفتنة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الخفر ، ويزيد من روعة وجهها الاعزل المنقاد لكل اندفاعة من اندفاعات قلبها ، من فرح سريع فى بعض الاحيان ، الى كآبة ناعمة فى معظم الاحيان .. ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوع زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ماهو نبيل ، والى كل مايستثير الشفقة ويذكى الالم ، بحيث لا يسع المرء الا ان يستسلم لها رغم انفه ، والا ان ينجذب اليها رغم انفه ، ليجنى قليلا من هذا الصفاء ، من هذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحى ، من هذا الحب الذى ينبع من أعماق وجودها .

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على أن يظل مدة طويلة فى تأمل متعبد حار تتحرر فيه النفس من عقالها ، وتصبح أشبه بصفحة ماء هادىء

تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية . **وقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، فى كثير من الاحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفر ، وتلتمع فى عينيها بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عفيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وان تتحد بها !..** وكانت فى تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفاجئة ، واندفاعاتها المباغتة تنقلها من الخجل الرقيق الى الانفعال الرفيع والحماسة الجريئة. ولكن ما أكثر ماكانت تظهر عندئذ من سذاجة ، ومن تعجل كتعجل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست أشك فى أن مصورا من المصورين مستعد لان يهب نصف حياته ، فى سبيل أن يرسم على قماشه لحظة من وجد فى مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ..

***

وقد ادركت فى الايام الاولى من اقامتى فى هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التى تعيش فى هذه العزلة التامة سعيدة بوجودى الى قربها . لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد أصبحت أما الا منذ سنة واحدة فأصبحت أنا ابنتها . كانت لا تستطيع

أن تفرق بينى وبين طفلها . ليتكم ترون حماستها الشديدة في الانكباب على تربيتى ! لم تكن مدام ليوتار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هذا الاندفاع ، متعجلة هذا التعجل . والحق اننا اندفعنا كلتانا الى كل شيء في آن واحد ، حتى لم تعد تفهم شيئا ، لاهى ولا أنا . كانت تعلمنى أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حس عملى . وقد ساءها طيشها هذا في أول الامر ، الا اننا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شيء من جديد .

ذلك أن الكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت تحب أن تنهج في التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لنهج مدام ليوتار ، وكانتا تتناقشان في هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتى الجديدة تعلن فى لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد أننا بالتلمس والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضرورى أن تحشو رأسى بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحى في الدراسة يجب أن يعتمد على مواهبى الطبيعية ، وعلى البراعة في ايقاظ ارادتى الحسنة .

ولقد كانت على حق فيما قالت ، مادامت قد نجحت

نجاحا تاما . وقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة، فكنا معا كصديقتين ، حتى لقد كانت من البراعة فى هـــذا بحيث كان يبدو فى بعض الاحيان اننى أنا التى اعلمها ! .. وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشـــات حادة ، فأحاول أن ابرهن بحــرارة على صـــحة آرائى ، دون ان ادرك ان الكسندرين ميخائيلوفنا تقودنى فى هذا السـبيل . وكنت أدرك حيلتها هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا ، فأقدر عندئذ الجهد الذى تحملته ساعات طويلة فى بعض الاحيان ، والتضـحية التى بذلتهـــا من أجلى ، فأرتمى على عنقها ، واقبلهـــا بقوة وعنف ..

كان كل درس من الدروس ينتهى على هـــذا النحو .. **وكانت حساسيتى تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق . وأخذت تسألنى عن ماضى فى كثير من الاهتمـام ، تريد أن تعرفه منى ، وكلما قصصت عليها بعض ذكرياتى رأيتهـــا تغدو أكثر رقة معى ، وأكثر جدا فى معاملتى ، اقـــول « أكثر جدا » لان طفولتى البائسة كانت توقظ فى نفسها ، فضلا عن الشفقة ، نوعا من الاحترام .** وكنا ، بعد أن أفضى اليها بذكرياتى ، نغرق عادة فى مناقشات طـــويلة ، فكانت تشرح لى ماضي شرحا يتراءى لي معه انني أعيشه مـــرة

أخرى فى الواقع ، واعرف عنه أمورا كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى أن هذه المناقشات مسرفة فى الجد ، بل كانت ترى أنها فى غير محلها – حين تلاحظ انهمار دموعى بالرغم منى – اما أنا فكنت ارى نقيض رأيها تماما. لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » ، أتخفف من آلامى الى حد اننى لاأعود أرى فى قدرى شيئا محزنا . والذى أحمده لألكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شىء ، هو اننى كنت مضطرة الى أن أحبها أكثر فأكثر ، يوما بعد يوم . ان مدام ليوتار لم تكن تعلم أن كل ما قد أثار فى نفسى ، فى الماضى ، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد من حدته شيئا بعد شىء ، وينصهر فى انسجام متماسك قوى ؛ ولم تكن مدام ليوتار لتتصور الى أى حد قد تسممت نفسى بما قاسيت .. الى أى حد أرهقتنى قسوة القدر الغاشم .. الى أى حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتينى الضربة التى تهوى على راسى !

***

وكنا فى أول الصباح نجتمع فى حجرة الأطفال ، فنوقظ الطفل ، ونعنى بهندامه وطعامه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضى الى العمل . كنا ندرس كثيرا جدا ، ولكن .. الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التى تشتمل على كل شىء ، ولا

تشتمل فى حقيقة الأمر على أى شىء محدد ! ..

كنا نقرأ معا ، ونتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب وننصرف الى الموسقى ، فكانت الساعات تنقضى سريعة لا نحس لها انقضاء .. وفى المساء كثيرا ماكان «ب» ، صديق الكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتى زائرا ، وكانت مدام ليوتار تأتى أيضا ، **فتدور بيننا فى بعض الأحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة** (التى لا نعرفها فى حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضى والمستقبل ، ونقضى نصف الليل فى مثل هذه الأحاديث . وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، واتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بعض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى .

..وكنت أثناء ذلك أتقدم فى السن ، وفى الوعى . وعهدوا الى بعض الاساتذة بتعليمى ، ولكنى ماكنت لأتعلم منهم شيئا لولا الكسندرين ميخائيلوفنا . ما كنت لولاها لازيد ، مع أستاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عيناى فى البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطة . أما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله فى حماسة وحميا ، ساعات طوال، **حتى أصبحت كتب الكسندرين ميخائيلوفنا لاتروى ظمائا ،**

وحتى أصبحنا فى حاجة الى التهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن انصح أستاذى بقراءة بعضها !

.. على انه لابد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى فى معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات . وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر . الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، نتعلم التاريخ - أنا والكسندرين ميخائيلوفنا - على طريقتنا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن الكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنها كانت تراقب ما نقرأ ..

وأذكر أننى لم أشعر فى حياتى بحماسة كالتى كنت أشعر بها بعد هذه القراءات . كنا نتحمس كأننا أبطال ما نقرأ . وكنا نقرأ ، عدا السطور ، مابين السطور . وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تجود القراءة حتى لكأن كل ما تقرؤه قد وقع لها . ولكن يجب أن أعترف أن ثمة شيئا مضحكا فى هذه الحماسة لتى كانت تحرمنا من النوم نصف الليل : أنا الطفلة ، وهى القلب الجريح الذى يحتمل الحياة فى مشقة وعناء ! (وكنت أعلم أن الكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبي

عزاء وسلوى) . واذكر أننى كنت فى بعض اللحظات أفكر تفكيرا غريبا وأنا أنظر اليها . **كنت من فرط محاولتى الفهم قد فهمت كثيرا عن أمور الحياة ، قبل أن أبدأ الحياة !**

***

وبلغت الثالثة عشرة من عمرى . وازدادت صحة الكسندرين ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءا على سوء . أصبحت أسرع الى الاهتياج مما كانت ، وازدادت حدة الحزن الذى يغشاها من حين الى حين دون ما سبب ، وكثرت زيارات زوجها لها . وأصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا أنه ظل على عادته حزينا كئيبا لايكاد ينبس بكلمة . وأخذ مصير الكسندرين ميخائيلوفنا يشغلنى على نحو أقوى وأعنف . ان مشاعر جديدة تتكون الآن فى نفسى ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة . صرت أبحث ، وأفترض ، وأستنتج ، وأصبح السر الذى أحسه مرفرفا فى هذه الاسرة يقلقنى أكثر فأكثر ..

وكنت فى بعض اللحظات أحسب اننى فهمت هذا السر بعض الفهم . وفى لحظات أخرى يضعف شعورى بذلك ويقل اهتمامى بالأمر ، بل أحس بالملل والضجر ، فأنسى ما كنت أحب أن أعرفه ، ولا أعود أحفل به . وكنت فى أحيان أخرى أجد لذة كبيرة فى أن أبقى وحدى ، غارقة فى أفكارى .

وكانت تلك الأيام تشبه فترة من حياتى الماضية بين أبوى، تلك التى أحببت فيها أبى ، فظللت سنة كاملة أفكر بغير انقطاع ، واتخيل ، وأحلم ، وأنا قابعة فى ركنى .. تلك الفترة التى كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة فى ضروب من الأوهام يلفقها خيالى من هنا ومن هناك . الا أن ثمة فرقا بين الفترتين : فصبرى الآن أفرغ ، وقلقى أقوى ، واندفاعاتى الجديدة أوثق اتصالا باللاشعور ، وظمئى الى الحركة أشد، فكنت لا أستطيع أن أتركز على نقطة واحدة كما كنت فى الماضى .

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتعد عنى هى نفسها . **فاننى ، فى هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها . لست الآن طفلة ، وان أسئلتى الآن لكثيرة ، وانى لأنظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تغض طرفها .** كانت هنالك لحظات غريبة . وما كنت أستطيع أن أراها تبكى ، وكثيرا ما كانت دموعى تتدفق من عينى غزيرة حين اراها كذلك ، ثم أرتمى على عنقها أقبلها فى حرارة . ماذا عساها تقول لى ؟ كنت أشعر أننى عبء عليها !

وفى لحظات أخرى ــ وكانت تلك أكثر اللحظات قسوة وحزنا ــ كانت تعانقنى هى نفسها عناقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد .. وفى تلك اللحظات كانت كأنها تستدر حبى ،

كأنها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أننى قادرة على أن أفهمها وعلى أن أشاركها المها ! .. على أن هذا كله لا يمنع أن ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا . كان ذلك من الوضوح بحيث كنت أرانى فى بعض الاحيان أبتعد عنها فجأة ، اذ يؤلمنى أن أبقى الى جانبها . ثم أنه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى . على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الحيلولة بينها وبين الموسيقى . . أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر . ان الكسندرين ميخائيلوفنا لا تدرى الآن ماذا ينبغى أن تقرأ معى . فمن الممكن أن نتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا الى شىء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا . وحاولنا كلتانا أن نتحاشى أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التى تنفذ الى صميم الاشياء ..

فى هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ودون أن يكون ذلك فى الحسبان ، أن يفرض على حياتى مجرى آخر ، فاذا انتباهى ، وعواطفى ، وقلبى ، ورأسى ، ووجودى كله ، يتخذ اتخاذا جديدا ، يكتنفه التوتر الحماسى القوى . رايتنى فجأة ، دون أن الاحظ ذلك ، أنتقل الى عالم جديد . ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن أنظر حولى ، ولا أن أفكر . كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ،

الا أن الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى، مغمضة العينين. أهملت الامور التى كانت تقلقنى ، والتى كنت أبحث فيها عن مخرج دون أن أظفر بطائل ، وأنا أشد ماأكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت هذه الأمور مدة طويلة . واليكم كيف تطورت الامور :

***

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب . يؤدى أحدهما الى الاجنحة الكبرى ويؤدى الثانى الى غرفة الأطفال ، ويؤدى الثالث الى المكتبة . وكان للمكتبة باب آخر يؤدى الى حجرة العمل ، المتصلة بغرفتى . فى هذه الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذى كان يعمل ناسخا وقيما على البيت فى آن واحد . وكان مفتاح المكتبة فى عهدته . وفى ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت بهذا المفتاح على ارض الحجرة . كان حب الاستطلاع أقوى من أى شىء آخر ، فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة . انها حجرة واسعة ، مضاءة أحسن اضاءة ، تحتوى على ثمانى خزائن مملوءة كتبا . من هذه الكتب كمية كبيرة انتقلت الى يدى بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، الا أن قسما كبيرا منها انما جمعته الكسندرين ميخائيلوفنا التى كانت لا تنقطع عن شراء الكتب .

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر .. فلم يكن صعبا على أن أعتقد أن هذه الكتب الممنوعة عنى تنطوى على سر . لهذا السبب رأيتنى - وقد عصف بى ظمأ الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا - رأيتني افتح الخزانة الاولى وأخرج منها كتابا .
كانت تلك خزانة الروايات . ثم اغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القراءة فى حياتى . فلما عدت الى غرفتى ، اغلقتها على ، وفتحت الرواية ..

.. غير اننى كنت عاجزة عن القراءة . كان يشغلنى أمر آخر ، هو ان أطمئن اطمئنانا نهائيا الى اننى استطيع دخول المكتبة دون ان ينتبه احد الى أننى آخذ منها الكتب التى اهواها . وهكذا ارجأت لذة القراءة الى فرصة اخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح . كان ذلك اول عمل سىء اقترفه . وانتظرت النتائج !

ولكن الامور سارت على احسن ما يرام ، فان سكرتير بطرس الكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفة على ضوء شمعة دون أن

يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جعبته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبة ، فانتهى بذلك كل شيء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع . واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، اى بعد أن أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر . واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام . وينبغى أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح فى جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا .

ومنذ تلك اللحظة أخذت أقرأ فى كثير من الشره ، وسرعان ما أصبحت القراءة هوى قويا يملك على نفسى ، فاذا جميع حاجاتى الجديدة ، وصبواتى الحديثة ، وجميع اندفاعات مراهقتى ، هذه الاندفاعات التى مازالت غامضة والتى كانت تقلقنى وتشيع فى نفسى الاضطراب ، وكل ما قد أثاره عقلى المبكر اثارة قوية ودفعه فى اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظر ، فيندفع فيه لمدى طويل .
كنت كأننى شبعت من هذا الغذاء الجديد شبعا تاما ، ثم وجدت الآن طريقى الصحيحة . وسرعان ما أصبح قلبى من

النشوة وعقلى من الافتتان وخيالى من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد أحاط بى حتى ذلك الحين . كأن القدر نفسه سمرنى على عتبة الحياة الجديدة التى كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التى كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع . كأن القدر ، قبل أن يدفعنى فى الطريق المجهولة رفعنى الى قمة عالية ، حتى يرينى مستقبلى فى صورة رائعة أطل عليها من فوق ؛ صورة تفيض بالآمال الساحرة . ان الحظ يتيح لى الآن ان أجرب مستقبلى ، بقراءته فى أول الامر فى الكتب ، فى أحلامى ، فى آمالى ، فى وثباتى الجامحة ، فى جميع العواطف العذبة التى تفيض بها روحى الشابة .

.. وقرأت فى أول الامر الكتب التى تقع بين يدى ، دون تخير ، غير أن ماكنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبل والرفعة بحيث كنت لا أستطيع أن أجد أية متعة فى قراءة صفحات أباحية أو بذيئة . كانت غريزتى الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كل هذا كان يحمينى ويحرسنى . وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرؤها تبدو لى شيئا اعرفه منذ مدةطويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيوانات المختلفة المعروضة أمامى فى صور غير منتظرة ، فى لوحات جذابة ،

اننى أعرفها من قبل !

وكيف لا أصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ، وأنا أجد فى كل كتاب أقرؤه ثمرات قدر واحد بعينه ، والقانون الذى تفرضه على الحياة الانسانية نفس روح المغامرة ، هذا القانون المشتق من قانون أساسى آخر ، هو شرط السلامة ، والخلاص ، والسعادة ؟ هذا القانون كنت أتحسسه وكنت أحاول أن أحزره بكل ما أوتيت من قوة ، بكل الغرائز التى كان يوقظها فى نفسى الشعور بنوع من الحماية . كنت أشعر أننى معصومة مقدما ، كأن هناك شخصا يرشدنى ويطلب الى أن أكون ساهرة يقظة ..

والى جانب اندفاعاتى التى كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت تضطرم فى نفسى نبوءة حقيقية تجعلنى أؤمن بمستقبلى ، وأؤمن بأن حياتى ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحة . الا أن خيالى ، كما قلت ، كان يغلب اندفاعى . فكانت جراتى ، فى الواقع ، لا تتعدى أحلامى . وكانت الغريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردنى الى الخجل . وكأنما أردت أن أكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت ـ على غير شعور منى ـ أن أكتفى فى أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى ليس فيه الا متعة وفرح ، هذا العالم الذى ليس للشقاء فيه ـ ان وجد ـ

الا دور سلبى ، دور موقت ، دور لابد منه للتناقضات المتعة ، لتبدلات القدر التى تمد رواياتى بخواتيمها السعيدة . أو هكذا على الأقل ما أفهمه الآن من حالتى النفسية فى ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التى ليس فيها شىء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة كل الغرابة عن حياة الاشخاص الذين يحيطون بى ، قد استمرت ثلاث سنوات طوال ..

***

وكانت هذه الحياة سرى المكنون ، الخفى ، أخشى عليه أن يكتشف .. حتى لقد صرت أخشى أية نظرة يلقيها على أحد ، مخافة أن ينفذ الى أعماقى ويكشف عن سرى . وعشت حياة داخلية غنية ، فكنت اترك العنان لخيالى .. سيما وقد كان كل من فى البيت يعيش فى عزلة تامة ، بعيدا عن الآخرين ، فى صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، أو هذا ما حدث لى على كل حال ، **فما من شىء تغير من حولى ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل شىء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد . فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة ، مملة ..** ولولا أن سرى كان يواسينى ، ولولا أن نشاطى كان يسلينى (أدرك ذلك اليوم) لبلغ بى الضجر مبلغا كان يمكن أن يدفعنى

الى أى تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينة .. الامر الذى كان يمكن أن يؤدى الى هلاكى .

كانت مدام ليوتار قد بدأت تشيخ وتهرم ، بحيث أصبحت لا تكاد تترك غرفتها . وكان الولدان ما يزلان صغيرين ، أما « ب » فكان لايخرج عن سلوكه التى يجرى على وتيرة واحدة ، وأما زوج الكسندرين ميخائيلوفنا فكان محتفظا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، **وكان السر الخفى بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد فى نظرى خطرا وتهديدا ، وكنت ازداد خوفا على الكسندرين ميخائيلوفنا .**
كانت حياتها الخالية من الفرح ، حياتها العقيمة ، تذوى أمام بصرى يوما بعد يوم ، وصحتها تسوء أكثر فأكثر .. وكأن نوعا من اليأس قد سيطر على روحها لآخر الامر ، فكان المرء يحس أنها ترزح تحت وطأة شىء مجهول ، لايمكن ادراكه أو تعليله .. شىء فظيع رهيب .. غير أنها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب لا مفر !

.. وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلاما وحزنا . وثمة شىء كان يسترعى انتباهى أكثر من أى شىء آخر : كان يلوح لى أنها تبتعد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرها منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد فى بعض اللحظات أنها لم تعد تحبنى البتة ، كأنما

أنا أزعجها . وسبق أن قلت أننى قد ابتعدت عنها فى أول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبعها قد سرت عدواه الى ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحماسات، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم أطلع عليه أحدا . فلما أصبحنا سرين ، لم نتقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى .

***

ولا أستطيع أن أتذكر — دون أن أبكى — الى أى حد كان تعلقى بها شديدا ، والى أى حد أغدقت على من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاتها ، الى درجة حب الام . والحق أن تباريحها الكامنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى، وحاولت جهدى أن لا ألفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة عشرة من عمرى دون أن يفطن أحد الى ذلك . الا أن الكسندرين ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولها نظرات صافية جدا ، فاذا هى فجأة، وقد تملكها قلق على ، تدعونى الى غرفتها ، وتنتزعنى من دروسى أو مشاغلى، وتغمرنى بوابل من الاسئلة، كأنها ظمأى الى معرفتى

على أكمل نحو ، ثم لاتتركنى خلال أيام برمتها ، محاولة أن تحزر كل ما يستهوينى ، وأن تدرك جميع رغباتى ، لا يعنيها شىء غير نموى وتطورى ، غير حالتى الراهنة ومستقبلى ، مبدية استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف المودة والحب .

غير أنها وقد كانت بعيدة عنى فى تلك الفترة ، كانت تعمد فى سبيل ذلك الى وسائل ساذجة مسرفة فى السذاجة ، وكنت أدرك نياتها ومقاصدها بسهولة . واكتشفت هى فجأة اننى لم أخرج فى قراءاتى عن كتب الاطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشر من العمر ، فهالها ذلك كثيرا ، وحزرت انا سبب شعورها ذاك ، ولاحظته فى كثير من الانتباه ، وظلت بعد ذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تختبرنى » ، لتقف على درجة نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمت أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب (ايفانويه) ، الذى كنت قد قرأته ثلاث مرات على الاقل ، وراقبت انفعالاتى فى خجل يقظ ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات . وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر — وكان بالنسبة الى ظاهريا — وتحمسنا كلتانا للرواية ، وبلغ من فرحى اننى كدت أعترف لها بكل شىء . وحين وصلنا الى النقطة التى تنحل فيها عقدة الرواية كانت حماستها قد بلغت أوجها . وكانت كل ملاحظة من الملاحظات التى أبديها

أثناء القراءة صائبة ، وكل رأى أسوقه صادقا ، فأدركت « الكسندرين » أن نموى سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أثارت اعتزازها ، فأخذت تتابع تربيتى مرة أخرى فى كثير من الحماسة ، وانتوت أن لاتتركنى لنفسى بعد الآن أبدا .. **غير أن ذلك لم يكن فى مقدورها ، فقد تكفل القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد .. فهاهى تصاب بنكسة فى صحتها ، وهاهو حزنها الابدى يعود فيلازمها ، وها نحن نتباعد ، ثم تزول الالفة ، ويحل محلها الحذر والتهكم ، وربما الاهمال والبغض !**

***

غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى فى تلك الفترة ، تفلت من رقابتنا ، فكانت القراءة المشتركة أحيانا ، وبعض كلمات التودد التى ترسلها احدانا فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا ننسى كل شىء .. بل تجعلنا نفرط فى النسيان فى بعض الاحيان ، حتى لتلبث احدانا بعدئذ كأنما هى خجلى من الاخرى .. وما هى الا لحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى الاخرى فى استطلاع حذر هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزا يقف عنده تقاربنا ، واننا لا نستطيع أن تجتاز هذا الحاجز برغم رغبتنا فى ذلك .. !

وذات مساء ، ساعة الفسق ، كنت فى مخدع الكسندرين

ميخائيلوفنا ، أقرأ كتابا في ذهول . وكانت هي تعزف على البيانو ألحانا مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالي تؤثره ، حتى اذا وصلت الى مقطع معين من هذا اللحن رأيتني وقد دبت حماسة من الموسيقى في قلبي آخذ في الغناء بصوت مخفوض خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماستي أن أنهض من مكاني وأقترب من البيانو .. وكأن الكسندرين ميخائيلوفنا أدركت اهتمامي هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نغمةمن النغمات التي كنت أغنيها ، وهي اشد ما تكون دهشة ..

لقد فاجأها صوتي مفاجأة كبيرة . لم أكن قد غنيت أمامها أبدا قبل تلك اللحظة . ثم انني كنت أجهل – انا نفسي – مقدرتي في الغناء . وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتي أكثر فأكثر ، وهي تتابع غنائي بعزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك في حماستي انا الاخرى .. حتى فرغنا ، فاذا هي من اعجابها تمسك يدي في تأثر قوي ، وتنظر الى فرحة وهي تقول :

– آنيت .. آنيت . ان لك صوتا رائعا ! رباه ! كيف أمكن أن لا الحظ ذلك !

فأجبت وقد غمرني فرح شديد :

– لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى .

– ليباركك الله ، أيتها البنية التي لا تعرف الكبرياء ولا

الزهو ! أشكرى الله على ما أودع فيك من مواهب . من يدرى ... آه ، رباه ! رباه !

كانت من شدة التأثر لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبنى . كانت تلك اللحظة من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقارب بعد عهدنا به كثيرا ، وما هى الا ساعة حتى كان البيت كله فى عيد ، وأرسلوا يستدعون « ب » على الفور !

وفى انتظار وصوله، فتحنا على غير هدى دفترا موسيقيا آخر أعرفه معرفة أتم ، لنجرب لحنا آخر . وكنت فى هذه المرة ارتعد خجلا ووجلا . كنت أخاف أن أخفق فأفسد الاثر الاول .. لكن جرس صوتى سرعان ما طمأننى ورد الى شجاعتى ، وازدادت حيرتى ودهشتى من هذه القوة التى أملكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك . وطفح فرح الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديها ، بل واستدعت خادمتها . ثم طفحت حماستها أكثر من ذلك فمضت الى زوجها فى حجرة عمله تستدعيه - وهو أمر ما كان لها ان تسمح لنفسها به فى الاحوال العادية ! - واحسن بطرس الكسندوفتش استقبال النبأ ، وهنأنى ، وكان أول من قال ان على أن أتلقى دروسا ، فشعرت

الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هى بشىء !

..وأخيرا وصل « ب » ، وكان يحبنى كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبى وعن الماضى ، ثم بعد أن غنيت أمامه مرتين أو ثلاثا أعلن وقد لاحت فى وجهه علائم الهم أنى مؤهلة للغناء من غير شك ، وانني قد أكون موهوبة ، وأن من الضرورى أن يثقف صوتى على كل حال. ثم كأن « ب » والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا فى الثناء فبادرا الى القول بأن امتداحى على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما فى الوقت نفسه يتغامزان خلسة ، فيفضحان بذلك تآمرهما على ، وهو تآمر مسرف فى السذاجة ، مسرف فى الخرافة على كل حال ، وظللت أتسلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل قطعة جديدة أغنيها يحاولان أن يحبسا فرجهما ، ويتعمدان أن يعلنا جهارا بعض الملاحظات عن أخطائى ..

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان « ب » أول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وحبور — ولم أكن أتصور أنه يحمل لى كل هذه العاطفة — وجرى الحديث خلال السهرة كلها وديا حارا .

وقص علينا « ب » حياة بعض المغنين المشهورين ، وكان يقصها فى حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفته .. ثم ارتد الى أبى ، وتحدثنا عنى ، وعن طفولتى ، وعن الامير وعن أسرة الامير ، التى لم أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويلة . ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف عنها الا القليل . وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئونها لأنه سافر الى موسكو عدة مرات . لكننا حين وصلنامن حديثنا الى هذا الموضع تلفع الكلام بأسرار واحاج فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان أوثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن ادرك كنهها البتة ! .. واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن «ب » لم يستطع ان يقول بصددها أى شىء واضح ، حتى لقد بدا انه يؤثر ان لا يقول شيئا !

وفجأنى ذلك كثيرا . انني لم انس حبى لكاتيا ، حتى لقد كنت لا أستطيع ان اتصور — للحظة واحدة — أن قد طرأ على كاتيا أي تغير مهما يكن شأنه . لقد غاب عني حتى تلك اللحظة كل شىء : فراقنا ، والسنوات الطويلة التى قضيناها بعيدتين احداناعن الاخرى دون أن نتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع .. ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالي ابدا ، كانت لا تزال تعيش الى جانبي ، ففي احلامي ، في رواياتي ، في مغامراتي الخيالية ، كنا نسير دائما جنبا الى جنب ،

وقد امسكت كل منا بيد الاخرى . كنت اذا تخيلت نفسى بطلة الكتاب الذى أقرؤه سرعان ما أفسح لصديقتى الاميرة مكانا الى جانبى ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، احدهما من اختراعى !

والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء أستاذ يعلمنى الغناء ، وأوصى « ب » بأستاذ هو أشهر الاساتذة وأقدرهم ، فما ان أتى اليوم التالى حتى حضر الينا الايطالى « د » ، فسمع غنائى ووافق على رأى صديقه « ب » ، ثم أضاف الى ذلك اننى اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الآخرين كان ذلك أكثر فائدة بالنسبة لى ، لأن التنافس هنالك سيحملنى على زيادة العناية بتثقيف صوتى ، كما ان المقارنة بين أصوات كثيرة ستفيدنى فى اثراء صوتى . ووافقت الكسندرين ميخائيلوفنا على ذلك ؛ وصرت منذ ذلك الحين أذهب ثلاث مرات فى الأسبوع الى دروس (الكونسرفاتوار) ، تصحبنى وصيفة .

والآن أريد أن اقص حادثا غريبا كان له فى نفسى تأثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة . كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمرى ، وقد أصبت فجأة فى ذلك الحين بنوع من تبلد الحس وخمود العاطفة ، لا سبيل الى دفعه . كنت أعانى ضربا من فراغ النفس رهيبا ، لا يطاق ولا يفهم . كان



« ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح ، كان ذلك أول عمل سيء اقترفه .. » (ص ٢٢٣)

خيالى قد كبا ، ووثباتى قدانطفأت ، وأحلامى قدتبددت ـ حتى لكأننى لا استطيع أن أحلم ! ـ وحل محل الحماسة القديمة فتور شديد ، حتى أن موهبتى التى كان يعترف بها الجميع والتى كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون أن أشعر من هذا الاهمال بأى ندم . لم يبق ثمة شىء يشوقنى أويجذبنى ، حتى أن الكسندرين ميخائيلوفنا اصبحت لا تثير فى الا البرودة ، وكنت ألوم نفسى على ذلك ، سيما واننى لم أكن أستطيع الا أن الاحظه . وكان تبلد شعورى مشوبا بحزن لاعلة له ، ونوبات من البكاء مفاجئة . وصرت أنشد الخلوة والوحدة .

فى تلك الفترة هزنى هذا الحادث الغريب الذى سأقصه الآن ، وقلب نفسى راسا على عقب ، وأحال الخدر الى عاصفة . لقد جرح قلبى جرحا هائلا .. واليكم كيف تم ذلك .

- ٨ -

دخلت المكتبة ذات يوم (وكانت تلك لحظة لن انساها ما حييت) وتناولت رواية من تأليف « ولتر سكوت » هى (مياه سان رونان) — وكانت الكتاب الوحيد الذى لم أقرأه بعد — واذكر ان نوعا من القلق المر كان كأنما يجعلنى أوجس أمرا . كانت بى رغبة فى البكاء . وكان النور فى الغرفة ساطعا ، من اشعة الشمس الغاربة التى تتدفق فى أرجاء الغرفة من النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتلألىء . وكان يسود ثمة سكون تام .. ما من مخلوق فى الغرف المجاورة .. كان بطرس الكسندوفتش غائبا عن البيت ، والكسندرين ميخائيلوفنا تعانى من آلام مرضها ، فهى تستريح فى سريرها .

وطفقت ابكى دون ان أستطيع حبس دموعى ، ثم فتحت الكتاب من نصفه الثانى وقلبت بضع صفحات على غير هدى ، كأنما أريد أن احزر شيئا ما ، من نهايات الجمل التى تخطر أمام عينى . كنت كأننى افتش عن نبوءة او فال ، كمايفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على غير هدى . ثمة لحظات يريد فيها المرء ان يوتر عقله وقواه الى أقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيوف

من النبوءة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذى ينتظرها . ان كياننا كله ، وقد جرفه الظمأ الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عندئذ للأمل ، مهما يكن هذا الامل أعمى ومهما يكن عنيفا ، وينادى المستقبل بكل ما فيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه أنه الحياة .. كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات .

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة أخرى املا فى أن اقرأ مستقبلى فى الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا .. فاذا بى أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيات يظهر من شدة انضغاط حوافيها انها نسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة . نظرت الى الرسالة فى كثير من حب الاستطلاع . كانت بلا عنوان ، ومذيلة بهذا التوقيع : « س . و » .. واشتد انتباهى ، ونشرت طيات الرسالة – وكانت أشبه بالملتصقة ، مصفرة ، مهترئة – وكان واضحا أن صاحبها قد قرأها وأعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنزا من الكنوز !

وكان الحبر قد شحب ، من بعد عهد الكتابة .. وقفزت الى عينى بضع كلمات ، فأخذ قلبى يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال . واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب

الرسالة بين يدى دون أن أصمم على البدء بقراءتها . ونظرت اليها فجأة من خلال النور : نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها .. ومازالت بقعها فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد أمحت بتأثيرها أو تشوهت . **من عسى ان يكون ساكب هذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الاولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت من صدرى صرخة** . أعدت الكتاب الى مكانه ، وأغلقت المكتبة ، ودسست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى الوذ بها لأستأنف القراءة . كان قلبى يدق دقا عنيفا حتى لقد كانت الكلمات تترنح وتتراقص أمام عينى . ولم استطع أن أفهم الا بعد مدة طويلة .

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلقنى كثيرا . ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقة ، لاننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه . كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة أقترف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع ان أمنع نفسى عن قراءتها . كانت الرسالة موجهة الى .. الكسندرين ميخائيلوفنا .

لسوف انسخ لكم هذه الرسالة . كنت قد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد ان قرأتها ثم أعدت قراءتها لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، **وكان حياتى قد**

تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد . لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا . وانقبض صدرى بعد أن قرائها كأنما أنا فقدت كل شىء ، كأنما انتزع منى كل شىء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شىء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

ترى من كاتب هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، وعلى وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن يخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على الغاز كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصددها فى ظنون وتخمينات ! .. على اننى فهمتها فهما صائبا . وكان الاسلوب وحده يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التى تحطمت فسحقت قلبين . ان أفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصية ، وهى كما قلت كافية لتكشف لى عن السر . ولكن اليكم نص هذه الرسالة ، نسخته كلمة كلمة :

« **قلت** انك لن تنسينى . وأنا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهذا القول . يجب أن نفترق . لقد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، ياعزيزتى الرقيقة الحزينة ،

أعرف ذلك منذ زمان طويل ، غير انني لم افهمه الا اليوم. طوال العهد الذى أحببتني فيه ، كان قلبي ، رغم حبك قلقا معذبا في كل لحظة . **هل تصدقين انني من شدة ما تألمت في سبيل حبنا أشعر الآن بشيء من الراحة ؟ كنت اعرف منذ زمان طويل أن علاقتنا ستنتهي لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قدر محتوم..** اسمعي ، ياالكسندرين ، اننا لم نكن متكافئين، لقد شعرت بذلك دائما ، دائما . لم أكن جديرا بك ، وعلي أن أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتي الذاهبة ! قولي ، ماذا كنت قبل أن أعرفك ؟ رباه ! هاتان سنتان تنقضيان ، وما زلت الى الآن لا أستطيع أن أفهم لماذا أحببتني أنت ! لا أستطيع ان افهم كيف يمكن ان يقع شيء كهذا ! ؟

« **ما انا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتي الي ، وحتى تختارينني؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، اخرق ، عبوسا** . ولم أكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بي حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى ، كان كل شيء قد اختنق في نفسي حتى كنت لا ارى في الدنيا ما هو أهم شأنا من عملي اليومي الموحش !!

« وكان قد بقى لى شاغل واحد ، هو الغد ، بل كنت لا أحفل حتى بهذا الامر . وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء وأحلم كما يحلم غبى من الاغبياء . ولكن كان قد انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، واصبحت من الاستقرار فى حياتى المنزوية الكالحة الهادئة بحيث لا اشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى . كان قلبى يغط فى نوم عميق . ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس .. كنت أؤمن بذلك ، ولا أثور عليه ، لعلمى بأن الامر يجب أن يكون على هذا النحو . وحين مررت بى ، لم أستطع أن افهم أن فى وسعى ان اجرؤ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا . ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب . لم تزد دقات قلبى قوة . ولم تعرف روحى روحك ، وان احسست بهذا الضوء الناعم يشع من أختها الرائعة ..

« على أن احساسى هذا كان غامضا أصم . كنت قادرا على الشعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يغرقها نور الشمس تشعر بالدفء والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! .. وحين فهمت كل شىء فى ذلك المساء ،

بعد الاقوال التى هزت أعمق أعمـاق نفسى ، عميت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شىء ، وبلغ انفعالى من القوة أن اعتقـدت اننى لا افهم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شىء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفى عنه شيئا البتة . **لست الآن ما كنته من قبل أن أعرفك . ولو قد استطعت أن أحدثك، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منـذ زمان طويل . غير أننى سكت ، ولئن كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفى من هذا الذى تتركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !**

«**هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد الهبنى الهوى كالنـار ، نفـذ الى دمى كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا** . كنت سكرانا ، كنت مشلولا ، كنت مخدرا ، فلم ازد على أن أستجبت لحبك النقى ، لحبك الرءوف الحنون الرحيم ، دون أن أشعر أننى كفء لك ، دون ان أكون جديرا بك . كنت لا أعرفك . واستجبت لك استجابتى لمن كانت فى نظرى تهبط الى ، لا استجابتى لمن كانت تريد أن ترتفع بى اليها . هل تعلمين ماذاظننت فيك ، وماذا تعنى هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد أن أسىء اليك باعتراف كهذا . على أننى أحب

أن أؤكد لك شيئا : لقد خدعت فى أمرى كثيرا ، فما كان يمكن أن ارقى اليك فى يوم من الايام . وبعد ان فهمتك ، اصبحت لا أستطيع الا ان أتأملك ، انت التى كنت لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتنى هذا الحب القوى ..

«غير أن ذلك لايكفر عن خطئى . ان حبى الذى شرف بك لم يكن حبا . كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبيح لنفسى ان احبك . لأن الحب يقوم على وصال روحى لست جديرا به ، وعلى مساواة لست أهلا لها ! .. كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف اقول هذه الاشياء ، كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع ان اصدق .. آه ! هل تذكرين ، بعد هداة الانفعال الاول ، حين استطاعت عيناى المضطربتان أن تريا رؤية واضحة ؛ هل تذكرين كيف ان شعورى الاول عندئذ كان دهشة وحيرة وهلعا ، وكيف اننى ارتميت على قدميك أشهق وانتحب ؟ هل تذكرين كيف انك سألتينى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكت يومئذ ، لأننى كنت لا أستطيع أن اجيبك . كانت السعادة قد مزقت نفسى . كانت السعادة تسحقنى سحقا كحمل ثقيل . وكانت دموعى تقول لى : « علام وهب لى كل هذا ؟

فيم أستحقه ؟ كيف استحققت مثل هذه السعادة ؟

« أختاه .. يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة .. آه .. كم من مرة قبلت ثوبك خفيـة ، دون أن يدور ذلك فى خلـدك ، لعلمى بأننى غير خليق بك ! وكانت انفاسى تختنق ، وكان قلبى يأخـذ فى خفقان بطىء ، كان يدق دقات قوية صماء ، كأنه يوشك ان يتوقف الى الابد . وكنت حين امسك يديك، أشحب وارتجف، لان صفاء روحك كان يخجلنى ويرهبنى ! أواه . اننى عاجز عن ان أقول لك كل بمـا تجمع فى قلبى ، كل ما كنت أود لو اعبر لك عنه . هل تعلمين ان حنانك ورقتك الدائمة كانا يؤلمانى ؟ حين قبلتنى (ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حييت) شعرت بضباب يغشى عينى ، وشعرت بنفسى كلها تذوب دفعة واحدة ! .. لمـاذا لم امت فى تلك اللحظـة على قـدميك ؟ ترين اننى اخاطبك الآن بصيغـة المفرد ، لأول مرة ، رغم انك طلبت الى ذلك منذ زمان طويل . هل تفهمين ماذا اعنى بذلك ؟ .. اننى أريد ان أقول لك كل شىء ، وسأقول لك كل شىء : نعم ، انك تحبيننى كثيرا ، تحبيننى كما تحب اخت أخاها ، وتحبيننى كما يحب خالق مخلوقه ، لانك أحييت قلبى : لأنك أنقذت روحى

من خدرها ، لانك غرست فى صدرى أملا عذبا ، أما أنا فلم أستطع ، لم أجرؤ . اننى حتى الآن لم أستطع ان اناديك يا أختاه ، لأننى لا اقدر أن اكون اخاك ،لأننى لست كفئا لك ، لأنك خدعت فى أمرى !

« ترين اننى لا أتحدث الا عن نفسى . حتى فى هذه اللحظة التى أعانى فيها شقاء فظيعا ، لا أفكر الا فى نفسى ، رغم علمى بأنك تتعذبين قلقة على مصيرى . آه . لاتتعذبى من أجلى ، ياصديقتى الحنون . هل تعلمين الى أى حد أشعر بالصغار فى نظر نفسى ؟ لقد اكتشف كل شىء وأثير حوله صخب كثير ! .. **ولسوف ينبذونك بسببى ، لسوف يغرقونك بالاحتقار ، لسوف يسخرون منك ، لاننى فى نظرهم مخلوق حقير جدا ! .. أواه ! .. ما أكبر جريمتى لاننى لم أكن جديرا بك ! .. لو قد كنت أخطر منزلة . لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه . لو قد كنت شخصية فى نظرهم ، اذن لغفروا لك ! .. ولكننى امرؤ نكرة لاقيمة لى البتة ، امرؤ مضحك ، وهل أسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟**

« وفى الواقع ، من هم الذين استنكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ .. ولان أمثال هؤلاء الناس

استنكروا ، فقدت انا صوابى . لقد كنت دائما رجلا ضعيفا . هل تعلمين فى أية حال انا الآن ؟ .. اننى اسخر من نفسى ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لايمكن الا أن أكون مضحكا وكريها . اننى أشـــعر بذلك . اننى اكره وجهى ، أكره كيانى كله ، أكره عاداتى التى ليس فيها شيء من اللباقة واللطف . ولقد كرهتهـا دائمـا . أواه ! اغفرى لى يأسى الفظ . لقـد علمتنى أن أقول لك كل شيء . ولقد فقدتك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الســـاخرة ، لاننى لم أكن جديرا بك .

« ان هذه الفكرة تعذبنى . انها تدور فى راسى بلا توقف ، انها تضنينى وتسمم قلبى . يتراءى لى دائما انك لم تحبى الا الرجل الذى حسبت انك ترينه فى .. يتراءى لى دائما انك خـــدعت فى أمرى . ذلك مايؤلمنى ، ذلك ما يعذبنى حتى ليكاد يميتنى ، ذلك مايطيش لبى ويفقـدنى عـقلي ، ويجعلنى أشــبه بمجنون !

« وداعا ، اذن . وداعا . الآن وقد عرفـوا كل شيء .. الآن وقد صرخوا ماشاء لهم الصراخ ، وأنبوا ما شاء لهم التأنيب (سمعتهم يفعلون !) ..

الآن وقد صغرت فى نظر نفسى .. الآن وقد شعرت بالعار يجللنى ، وشعرت بالعار لك أيضا لانك اخترتنى .. الآن وقد لعنت نفسى ، فقد وجب على أن أهرب ، أن أختفى ، لأوفر لك الهدوء . لن ترينى بعد الآن ابدا ، ابدا . يجب ان اختفى ، ان القدر يأمر بذلك ! .. لقد وهب لى القدر اكثر مما استحق ، لقد أخطأ القدر ، وهاهو يتلافى الآن خطيئته ويسترد كل شىء . لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وهانحن الآن ننفصل الى لقاء آت ! .. ترى أين يكون هذا اللقاء الآتى ، ومتى يكون ؟ .. آه ! قولى لى ، ياحبيبة ، أين سنلتقى ؟ .. اين ينبغى أن أمضى باحثا عنك ، وهل أتعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفيننى اذا لقيتنى ؟ .. ان روحى كلها ملأى بك ، أواه ! لم هذا العقاب ؟ .. لماذا ننفصل ؟ .. قولى لى – فانى لا افهم لاننى اصبحت لا أدرك شيئا – قولى لى كيف يمزق المرء حياته جزئين ؟ .. كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟ آه .. لا استطيع ان اتصور اننى لن أراك بعد اليوم أبدا ، ابدا ابدا !

« رباه .. ما أشد ماصرخوا ! .. لكم أخاف عليك الآن ! .. لقد لقيت زوجك منذ قليل . اننا كلينا

غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم فى حقه .
انه يعرف كل شىء . لقد رآنا ، وانه ليفهم كل شىء. منذ مدة طويلة أصبح كل شىء واضحا أمام باصرته وضوح النهار . لقد دافع عنك دفاع البطل ، وسينقذك . سيخلصك من هذه المناقشات ومن هذه الصرخات ، انه يحبك كثيرا ويقدرك كثيرا.هو ينقذك وأنا أهرب !.. لقد ارتميت عليه أريد أن أقبل يده.. فطلب الى أن امضى على الفور ، ونفذت الامر . يقال انه قد تخاصم معهم بسببك . جميعهم هناك ، ضدك.حتى لقد اتهموه بالمجاراة والضعف. يا الهى! ماذا سيقولون أيضا ؟ انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم ! سامحيهم ياعزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى أكثر منك بكثير ..

« لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا أكتب اليك . ماذا قلت لك أمس مودعا ؟ .. لقد نسيت . كنت خارجا عن طورى .. وكنت تبكين ... اغفرى لى هذه الدموع .. اننى ضعيف . اننى جبان !

« كنت أريد ان اقول لك شيئا آخر أيضا . آه ! ليتنى أستطيع مرة أخرى ان اغرق يديك بالدموع

كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة ! .. ليتنى استطيع أن أجثوا مرة أخرى عند قدميك . آه ! .. ليتهم يعلمون شيئا عن جمال عاطفتك ! .. لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهــو والكبرياء .. انهم لا يرون ، ولن يروا أبدا ! .. انهم عاجزون عن ذلك! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أتى أهل الارض جميعا يعلنون ذلك أمام محكمتهم ، انهم لايستطيعون أن يفهموا شيئا . أية أحجار ســيرجمونك بهــا ايضا ؟ .. اية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟.. آه ، انهم لن يخجلوا ، ســيرفعون ألف حجــر ! .. سيجرؤون على رفع الاحجار ، لانهم يعــرفون معنى ذلك : سيرفعون أحجارهم جميعا فى وقت واحــد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعة ذلك لانهم بلاخطيئة!.. آه لو علموا ماذا يفعلون ! .. لو أمكن أن يروى لهم كل شىء بلا اكراه ، عسى أن يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! **ولكن لا ، انهم ليسوا اشرارا الى هــذا الحد .. لعلنى اقول فيهم سوءا لاننى فى حالة من الانهيار واليأس . ولعل مخاوفى ان تولد فيك شيئا من الهلــع .. فلا تخشيهم ، ولا تخشى شيئا ، ياحبيبتى . سيفهمونك . ألم يفهمك واحــد منهم ؟**

نعم . انه زوجك ، فلا تقطعى الرجاء .

وداعا ، وداعا . ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا .. الى الابد .

س.و

***

بلغت سن الاضطراب ـ على أثر قراءتى الرسالة ـ انني ظللت مدة طويلة لا أعى ماحدث لى . كنت مذعورة منهارة فى آن واحد . ان الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الفنية الحالمة التى عشتها منذ ثلاث سنوات . أدركت هلعة اننى أقبض على سر خطير ، وان هذا السر يربط منذ الآن كل وجودى .. كيف ؟ لا أدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهذه اللحظة نفسها . أصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن اشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله ..

وتملكنى الخوف : كيف أدخل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم أدع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟.. ماذا عسى ان احمل لهم؟.. وكيف يمكن أن تنحل هذه الروابط التى ربطتنى بسر غيرى على حين فجأة ؟ .. أين السبيل الى معرفة ذلك ؟ .. لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكهم معا ؟ .. لست أستطيع أن أسكت ، وأن امتنع عن الدور الذى عين لى ، وان احبس

ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الابد . وما مصيرى فى هذا كله ؟.. ماذا أعمل ؟.. ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته؟.. ألف سؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عينى ، وألقت بثقلها الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتائهة .

واذكر ان قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الى احساسات جديدة ، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل . ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلقى القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه . وكنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرنى . كنت فى تلك اللحظة أشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهول ، فاذا هو، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر ان مستقبله فى هذه الطريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ماحوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان . وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة ، وبلغت من انقباض القلب اننى شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى أن أسمع أحدا ، الى ان اقبل احدا قبلة عنيفة ..

لم أعد أستطيع أن أبقى وحيدة ، لم أعد اريد ان ابقى وحيدة . فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت

الى جانبها السهرة كلها . كنا وحدنا . ورجوتها أن لاتجلس الى البيانو ، وان لا تطلب الى الغناء . كان كل شىء يشق على نفسى . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى فى أى شىء . وأظن أننا بكينا معا . الا اننى اذكر اننى أخفتها كثيرا . فكانت تتوسل الى أن أهدىء روعى وان لا أكون مضطربة هذا الاضطراب كله .. وكانت تراقبنى فى قلق حافل ، وهى تردد اننى مريضة من غير شك ، واننى لا أعتنى بنفسى . وأخيرا تركتها وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، كنت فى حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نمت بعد أن انتابتنى حمى شديدة .

***

وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على ان استرد هدوئى ، وعلى أن أنظر الى الموقف نظرة واضحة. كنا نعيش عندئذ ، أنا والكسندرين ميخائيلوفنا ، فى عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفتش لم يكن فى بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابة لنداء أعماله ، وكان عليه أن يقضى هناك ثلاثة أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ، فقد حزنت له الكسندرين ميخائيلوفنا حزنا هائلا .. وكانت تهدأ فى بعض الاحيان ، ولكنها تعتزلنى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها !.. ثم اننى كنت أنشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهنى يعمل فى نوع من الضباب الخانق ،

وهو متوتر توترا مرضيا . كان يتفق لى أن أبقى ساعتين طويلتين فى هذا الاهتمام المؤلم ، **وكان يخيل الى أثناء ذلك كأننى أسمع أحدا يسخر منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفذ الى نفسى ويشوش كل أفكارى .** وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعورى ولا تدع لى راحة ..

كنت أتصور هذا الالم الطويل الذى لا مخرج منه ولانهاية له . كنت أتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين ميخائيلوفنا ذليلة دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تنبس بكلمة !.. وكنت أرى أن هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه . **كان يبدو لى أن الشخص الذى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحتقرها ويصب عليها اللعنات .. كنت أرى مجرما يغفر خطايا برىء ، وكان ذلك يمزق قلبى تمزيقا !** وكنت أود فى الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ، لو أستطيع أن أتحاشى هذه الشكوك .. كنت ألعن هذا الرجل ، وأمقت نفسى ، لان افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع أن يبرر مشاعرى . ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرسالة ، وهذه الصرخات الوداعية الرهيبة . وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن كفئا . حاولت أن أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فظيع .

وكان هذا الوداع اليائس يعذبنى : « شعرت بالعار يجللنى ، وشعرت بعار يلطخك أيضا ، لانك اخترتنى ! » .. من كان ذلك الرجل ؟.. ومم كان يتألم هذان المخلوقان ؟.. ماذا كان يعذبهما ؟.. ماذا فقدا ؟.. وكنت اهدىء من روعى وأعود فأقرأ الرسالة فى انتباه ، فتتمزق نفسى يأسا ، وأحار فى فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدى ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثر ، وتملكنى انفعال خانق .. والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحل على نحو ما ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، وكان ذلك يخيفنى !

وذات يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات عربة بطرس الكسندروفتش – وكان عائدا من رحلته الى موسكو – فانطلقت من صدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت أنا فى مكانى كالمتجمدة . أذكر أننى دهشت الى حد الذعر من انفعالى المباغت . ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فهرعت الى غرفتى . لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذى غشينى فجأة ، ولكننى كنت خائفة من هذا الخوف !.. وبعد ربع ساعة استدعونى ، وسلمونى رسالة من الامير . ورأيت فى القاعة رجلا لا أعرفه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركتها ادراكا خاطفا انه سيقيم بيننا مدة طويلة ..

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهى بعض الاعمال الهـــامة التى تتعلق بالاسرة والتى كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة . أعطانى الوكيل الرسالة وذكر لى ان الاميرة الصغيرة ـ كاتيا ـ كانت تنوى أن تكتب الى أيضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخـــر دقيقة انها تهيىءهذه الرسالة ، الا انها تركته يمضىأخيرا خالى اليدين ، وهى ترجوه أن يبلغنى انه ليس هنالك فى الواقع أى شىء تريد أن تكتبه الى ، وان كتابة رســـالة لا تعنى شيئا ، وانها سودت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من أن تنعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع أن نتـــكاتب . ثم كلفته أن يعدنى بأننى سألقاها فى القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتى اللحوحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح فى الواقع ، لأن أسرة الامير تنوى العودة الى بطرسبرج . وقد بلغ من فرحى لسماع هـــذا الكلام اننى لم أستطع أن أملك نفسى ، فهرعت الى غرفتى ، وأغلقت على الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عينى . ان الامير يبشرنى فى رسالته هذه بأنه سيرانى قريبا مع كاتيا ، وهو يهنئنى على موهبتى تهنئة حارة ، ويثنى على المستقبل اللامع الذى ينتظرنى ، ويؤكد لى رعايته وحمايته. وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، الا أن عذوبة دموعى هذه

كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى . لم أكن أفهم من حالتى هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !

***

وانقضت على ذلك أيام . وفى الغرفة التى تجاور غرفتى ، أعنى الغرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتش ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل . وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتش ، فيخلو الاثنان يعملان معا ..

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يحب أن يتناول الشاى معنا . فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت ان بطرس الكسندروفتش لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك أنتظر أوبته . كانت صورته معلقة على الحائط . وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدقت فيها طويلا وقد تملكنى انفعال لا أفهم كنهه . كانت الصورة عالية . ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشىء ، وكنت أود أن أرى الصورة عن كثب ، فقد اعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى . كنت فى حاجة لان أنعم

النظر فى هذه الصورة وأن أفحصها فحصا ، كأنما كنت آمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتانى فجأة ، ولم أكن قد رأيتهما من قبل ، لانهما كانتا مخبئتين دائما وراء النظارتين .

أذكر اننى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة، يدفعنى الى ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يفهم . وقد جاء الواقع الآن يؤيد نبوءتى ويبررها . وأخذ خيالى يسرح ويمرح ، **فاذا أنا أرى عينى الصورة تشيحان عن نظرتى الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ، وخيل الى أننى لا أرى فيهما الا الكذب والخداع ، وبلغت من قوة اعتقادى بأننى أنفذ الى سرهما بحيث تملكنى فرح عظيم لا يمكن وصفه . وانطلقت من صدرى صرخة** . وفى هذه اللحظة سمعت ضجة خفيفة ورائى ، فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملنى فى انتباه شديد . وخيل الى انه احمر فجأة ، فاحمررت أنا الاخرى ، وقفزت أهبط من فوق الكرسى .

سألنى بلهجة قاسية :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسى ؟

ولم أعرف فى أول الامر ماذا أقول . ولكننى ثبت الى نفسى ونقلت اليه ـ على نحو ما استطعت ـ دعوة الكسندرين

ميخائيلوفنا . لا أذكر الآن بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمله ، وانما أذكر اننى حين رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجواب الذى تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت .

فهتفت قائلة :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟ ما لوجهك احمر شديد الحمرة ؟ انظرى الى وجهك فى المرآة . ماذا بك ؟

فدمدت :

ـ لا أدرى .. لقد سرت مسرعة جدا ..

واستأنفت كلامها قلقة :

ـ ماذا قال لك بطرس الكسندروفتش ؟

ولم أجب . وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطرس الكسندروفتش ، فهرولت خارجة من الغرفة . وانتظرت ساعتين طويلتين وأنا أشد ما أكون قلقا . وأخيرا جاءنى من يقول ان الكسندرين ميخائيلوفنا تطلبنى . فمضيت اليها ، فألفيتها صامتة قد لاح على محياها انشغال البال . وحين دخلت ، غرست فى نظرة سريعة ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت من طرفها . كان نوع من الانزعاج يشع فى وجهها . وسرعان ما أدركت أنها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليلا ، وتتحاشى أن تنظر الى ، وتجيب على الاسئلة الرقيقة التى

يوجهها اليها «ب» ، وكان مظهرها يوحى بأنها تشعر بصداع فى رأسها. وكان بطرس الكسندروفتش أكثر انطلاقا مما عهدت فيه ، الا أنه كان لايتجه بالكلام الا الى « ب » .

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى البيـــانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت كثيرا لهـــذه التسلية التى خطرت على بالها :

- نعم ، يا آنيت ، غنى لنا أغنيتك الجديدة .

نظرت اليها ، فاذا هى تتأملنى فى انتباه قلق .

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقترب من البيانو ، وأن اغنى ، ظللت واقفة فى مكانى ، مضــطربة ، مرتبكة ، لا أدرى كيف أخرج من هـــذا الموقف . ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضا باتا !

فسألتنى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحـدق فى ، ثم تلقى على زوجها نظرة مختلسة :

- لماذا لا تريدين ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة من اضطراب أعصــابى ، فنهضت عن الطاولة وقد اعترتنى هزة شديدة لم أســتطع كتمانها . كنت أرتعد ارتعادا شديدا . وضاق صدرى حتى لم أعد أستطيع الاحتمال ، فأجبت بصوت مهتدج بأننى لاأريد أن أغنى لاننى لا أستطيع الغناء . وقلت اننى أشــعر بأننى

مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا .. يعلم الله ما كان أشد رغبتى لحظتئذ فى أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، فى غياهب غرفتى .

ولاحت فى وجه «ب» دهشة شديدة . أما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير أنها لم تحتج . وأما بطرس الكسندروفتش فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسى أمرا مستعجلا من أمور أعماله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع . الا انه صافح «ب» مودعا على سبيل الاحتياط ، خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألنى «ب» :

ـ ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح فى وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبرى :

ـ اننى متعبة جدا ، اننى مريضة جدا .

ـ أصدقك . ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديد الحمرة .

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صمتت فجأة . فهتفت وأنا أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ثاقبة :

ـ أوه ! كفى ..

لم تستطع المسكينة أن تحتمل نظرتى ، فغضت طرفهاكمن

ضبط متلبسا بالخطيئة ، بينما تخضبت وجنتاهاالشاحبتان ببقع حمر خفيفة .. فتناولت يدها وقبلتهـــا .. وتركتنى أفعل ذلك وهى تنظر الى بفرح صادق ساذج .

ـ اغفرى لى اننى كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة . ولكننى أؤكد لك اننى مريضة . لا تغضبى . دعينى أذهب .

قلت ذلك وأنا فى حالة انفعال .

ـ اننا جميعا أطفال !

ثم همست فى أذنى :

ـ أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير . الى اللقـــاء . وأتمنى لك الابلال من مرضك . ولكننى أناشـــدك الله أن لا تؤاخذينى .

فقلت وقد هزنى رجاؤها الساذج هزا قويا :

ـ أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هى تخاف نفسها فجأة ، وكررت سؤالى قائلة :

ـ لماذا ؟

ثم اضافت :

ـ انك ترين حالتى يا نيتوتشـــكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء . أنت أذكى منى . اننى أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شـــديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

ـ أوه . بربك اصمتى !

ثم قبلت يدها مرة أخرى وانسحبت .

***

وتملكنى أسف شديد وقلق عنيف ، وأنا أؤاخذ نفسى على اننى لم اكن حكيمـــة حذرة ولم احسن التصرف . كنت أشعر بخجل شديد يغرينى بالبكاء . ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ..

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى كان أول ما تبادر الى ذهنى هو أن ليلة البارحة كانت حلمـــا مزعجا ، كانت سرابا .. لقد تهالكنا على أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خرافتنا ، الى اننا لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية . وقلت لنفسى ان الآفة كلهـا ترجع الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكرى مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالى الى حد الافراط ، فرأيت من الافضل أن أدعها جانبا . وما ان عزمت امرى على ذلك حتى شعرت بقلقى يخف ، وحين أيقنت أن فى وسعى أن التزم قرارى بسهولة ، مضيت الى حضور درس الغناء فى طمأنينة وفرح .

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابى . كنت أحب كثيرا هذه الرحلة الصباحية الى أستاذى . **لقد كان يمتعنى جدا أن أجتاز المدينة وهى تستعيد نشاطها المألوف فى تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح** . كنا نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظرى ، ولا سيما هذا التناقض الذى أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن الذى ينتظرنى على بعد خطوتين ، فى الطابق الثانى من بناية كبيرة ، يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى . كنت أمضى الى درسى مارة بين هؤلاء الناس المنهمكين فى أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناتاليا » العجوز التى تصحبنى تحملنى ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أتساءل : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسى بصدد أستاذى أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالايطالى ولا هو بالفرنسى ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة فى بعض اللحظات ، ولكنه فى الاغلب دعى ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسلينى : يضحكنى تارة ، ويحملنى على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فنى ، أحبه فى خجل ، وأحبه فى رجاء قوى يجعلنى « أبنى آلاف القصور فى أسبانيا » ، وأتخيل لنفسى مستقبلا رائعا مشرق الالوان ،

فكنت أعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسى حماسة ونشاطا ..

وقد كنت فى مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسى الى البيت فى الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همى ، واسترسلت فى أحلام فرحة . **الا اننى انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذى يهبط السلم يرن من فوقى . فانتابتنى لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج ..** وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسى قوية واضحة ، حتى لم أستطع أن أخفى قلقى ، وانحنيت له انحناءة خفيفة .. ولا شك أن وجهى كان لحظتئذ معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهى من الانفعال ، وتابعت صعودى وأنا أكاد أركض .. بينما دمدم هو ببضع كلمات ورائى ، ثم استأنف هبوطه ..

كنت على وشك أن أبكى من شدة الاضطراب ، وانا لا أفهم ماذا انتابنى ، وظللت طوال فترة الصباح أنكر نفسى من فرط التغير الذى أصابنى .. لا ادرى على أى أمر أعزم ، ولا كيف أخرج من هذه الدوامة . واقسمت الف مرة أن أهدىء من روعى ، ثم عاد الخوف الف مرة يلم بى من جديد . **كنت أشعر أننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك**

فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحقد على الناس جميعا !.. لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأتى الى . وما أن ألقت ببصرها على حتى أوشكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفرار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلت الكسندرين ميخائيلوفنا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى ، عنايتها بطفلة ..

.. غير ان عنايتها هذه كانت تحزننى ، وكانت مداعباتها تشق على نفسى . كنت من شدة الشعور بالخجل حين أنظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسحبت وهى أشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى فى بكاء شديد . وعند المساء رأيتنى أحسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرتمى على ركبتيها وأرد اليها الرسالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وان اعترف لها بكل شىء !.. أردت أن أعترف لها بالعذاب الذى كابدته ، بالشكوك التى راودتنى ، وأن أقبلها قبلة تحمل كل الحب القلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وان اقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى افتح لها قلبى رحبا واسعا ، وان عليها ان تنظر الى نفسى فتجد فيها

العاطفة المشبوبة الراسخة التى احملها لها .

رباه ! كنت اعلم ، كنت اشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له قلبها ، الا انه بدا لى اننى أستطيع أن أرد السلام الى قلبها، بما يمكن أن أسوقه من كلام رزين معقول . كنت افهم قلقها — ولو فهما غامضا — وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تحمر خجلا منى ، وأن تخشى حكمى عليها ، أثور ثورة قوية.. يا عزيزتى ، يا عزيزتى المسكينة ، فيم أنت مذنبة ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكى بين قدميها .. كان الشعور بأنها مظلومة يثيرنى ثورة عنيفة حتى لكأننى مجنونة . والحق اننى لم أكن أدرى ماذا أفعل .. ولم أدرك ذلك الا فيما بعد ، حين تدخلت مصادفة من المصادفات فأنقذتنا كلتينا من الهلاك ، اذ اوقفتنى عند الخطوة الاولى . وكان الذعر يتملكنى أيضا . هل كان يمكن أن ينبعث الرجاء مرة أخرى فى هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟.. هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقى على الا أن أجتاز غرفتين حتى أصل الى غرفتها .. فاذا ببطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبى ، ويمر أمامى دون أن يرانى . كان ذاهبا اليها هو الاخر ، فوقفت فى مكانى مشدوهة، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن أصادفه فى مثل هذه اللحظة!

وكنت على وشك أن أعود أدراجى ، حين سمرنى حب الاستطلاع فى مكانى فجأة اذ رأيته يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره ، ويدندن - يالالدهشة ! - بأغنية ما !

.. وفى طرفة عين رجعت الى ذاكرتى ذكرى بعيدة من أيام الطفولة .. سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذى اجتاحنى :

.. خلال السنة الاولى التى عشتها فى هذا البيت لفتت نظرى واثرت فى ظاهرة غريبة تعود الى ذاكرتى الآن واضحة جلية . ظاهرة لم تكتسب دلالة ومعنى الا فى هذه اللحظة ، ولقد كانت هذه الظاهرة أصل الكره الذى أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له تعليلا . سبق أن قلت اننى ما شعرت يوما بشىء من الارتياح ازاء هذا الرجل . وسبق أن ذكرت أن تعبير وجهه الكالح ، المقطب ، المهموم ، يبث فى نفسى الخوف والقلق . وذكرت أيضا أن الساعات التى قضيتها معه على مائدة الشاى فى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقة على نفسى مؤلمة ، ووصفت ماانتابنى من انقباض الصدر حين شهدت - مرتين أو ثلاثا - أزمات عنيفة حزينة قامت بينه وبين زوجته ..

ولقد كان يتفق لى ان اصادفه ، كما اصادفه الآن ، فى هذه الفرفة نفسها ، فى هذه الساعة عينها ، ذاهبا مثلى الى

حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت اشعر بخجل كالذى يشعر به الاطفال ، فأنزوى فى زاوية ما كأننى مذنبة ، ادعو الله ان لا يرانى ابدا !.. كان يتوقف احيانا أمام المرآة ، كما يفعل الآن تماما ، فأرتعد عندئذ بشعور لا استطيع وصفه ولا تحديده .. **كنت أشعر انه « يصنع » لنفسه وجها !.. كنت على الاقل ارى ابتسامته واضحة فى محياه قبل ان يقف امام المرآة ، وكان ذلك يدهشنى كثيرا ، ولا سيما انه كان لا يبتسم ابدا امام الكسندرين ميخائيلوفنا . فما ان يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة** ، فاذا شفتاه تكتسيان ، بارادته ، تعبيرا مرا صادرا من قلب مقروح ، تعبيرا يستحيل اخفاؤه ، يستحيل كبته ، مهما كان لديه من الرغبة القوية ـ التى قد تفوق طاقة الانسان ـ فى ان لا يظهر من هذا التعبير شىء البتة .. فالعذاب الحبيس يغضن الجبين ، ويقطب الحاجبين ، ويصوح النظرة من تحت النظارتين !

وهكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر ، فى طرفة عين!.. وكنت أنا ارتجف خوفا ، وكنت اخشى ان « افهم » هذا المنظر الذى ارى ، والذى ترك فى نفسى ـ الى الابد ـ شعورا مؤلما ممضا . وكان بعد أن يتأمل نفسه لحظة فى المرآة ، يدلى رأسه ويتخذ وضع الانحناء الذى

يلازمه متى كان مع زوجتــــه ، ثم يدخل الى الكسندرين ميخائيلوفنا سائرا على اطراف الاصابع .

هذه الذكرى .. هى التى تعودنى الآن !

كان ، فى ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيــدا ، فيقف امام المرآة ، كما يفعل الآن . والآن ـ كما فى ذلك الوقت ـ لقيته على هذا الحال وأنا أشعر نحوه بالكره والعداوة ، على غير ارادة منى !.. غير اننى حين سمعته يغنى (وكان ذلك فى ذاته أمرا لا يمكن ان ينتظر منه !) بلغ من فرط دهشتى اننى تسمرت فى مكانى لا استطيع حــراكا . كانت حالتى فى تلك اللحظة شبيهة بحالات طفولتى . كان قلبى منقبضا انقباضا رهيبا لا استطيع له وصفا ، بحيث ان اعصابى كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء الذى لم اكن اتوقعــه .. فاذا انا انفجر فجأة فى ضحكة عصبية ، بالرغم منى !

.. اذ ذاك انطلقت من المغنى المسـكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء ، بعيدا عن المــرآة ، وامتقع وجهه حتى اصبح كالميت ، كأنه مجرم يقبض عليه متلبسا بالجرم !.. ونظر الى مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غضبا جنونيا .. فما زادتنى نظرته الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليها بمضاعفة ضحكى دون ان اغض من بصرى !.. ثم مررت الى جانبــه وأنا ما زلت أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا .

كنت اعرف انه وراء الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لا يدخل، وقد تسمر فى مكانه من الغضب والخشية .. واخذت ارقب ما سيفعل ، فى صبر فارغ مثير : كنت على شبه يقين من انه لن يدخل !.. ولم يخطىء ظنى ، فانه لم يأت الا بعد انقضاء نصف ساعة على ذلك . وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، نظرت الى فى شىء من الدهشة. ولكنها حاولت عبثا ان تفهم منى ما هنالك ، فاننى لم اجب بكلمة ، لأننى كنت كمن يختنق !.. وفهمت هى أخيرا ان اعصابى مضطربة لا استطيع ضبطها ، فقلقت لذلك اشد القلق . وحين استطعت ان أهدىء من روعى ، امسكت بيدها وقبلتها . **وفى تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فأدركت ان الفكرة التى راودتنى كان يمكن ان تقتلها ، لولا اننى صادفت زوجها فى الوقت المناسب !**

***

وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت انها كمن بعث الى الحياة من جديد ..

واختلست نظرة سريعة اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من هيئة كالحة ، رصينة حزينة . ولكننى أدركت من صفرة وجهه – ومن رجفة خفيفة فى زاوية شفته – انه

لا يخفى اضطرابه الا فى كثير من المشقة والعناء . وقد حيا ألكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا . كانت يداه ترتجفان حين تناول قدح الشـــاى . كنت اتوقع انفجارا ، وكان ذعرى يزداد قـــوة . الا اننى قررت ان انسحب ، وان اترك الكسندرين ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها . لقد كانت هى الاخـــرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه فى كثير من الخوف !

فبينما نحن فى صـــمت عميق ، رفعت بصرى فرأيت نظارتى بطرس الكسندروفتش تحـــدقان فى !.. وكنت لا أنتظر هذا ، فأوشكت ان اصرخ ، وغضضت عينى ..

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ..

اما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصـــوت قاطع خشن :

ـ ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم اجب ، فقد كان قلبى من شـــدة الخفقان بحيث لا استطيع ان انبس بحرف .

ـ ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك متجها بالسؤال فى هـــذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الى بيده اشارة وقحة .

وانقطعت أنفاسى من فرط الاستياء ، فأرسلت الى الكسندرين ميخائيلو فنا نظرة متوسلة ، ففهمتنى .. واذ ذاك تضرج خداها الشاحبان ، وقالت لى بصوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

ـ اذهبى الى غرفتك . سألحق بك بعد قليل ، وسنقضى السهرة معا ..

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألنى بصوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالته امرأته :

ـ هل سمعت ما أقول ؟ أريد أن أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتنى . أجيبى على سؤالى !

فقالت الكسندرين ميخائيلو فنا تجيبه بصوت يهدجه الانفعال :

ـ أنت تجعلها تحمر ، وتجعلنى أحمر أنا أيضا .

نظرت الى الكسندرين ميخائيلو فنا فى كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ..

ـ أنا ؟ أنا أجعلك تحمرين ؟ انا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشة هو الآخر ، وألح على « أنا » .. ثم أردف :

ـ تحمرين أنت بسببى أنا ؟ ولكن كيف يمكن أن أجعلك تحمرين ؟ الاولى أن تجعلينى أنت أحمر ، مارأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحا جدا فى ذهنى ، وقد قالها بطرس الكسندروفتش فى لهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ، وأهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأرى الدهشة ، والعذاب ، واللوم ، والذعر ، تشع جميعا من وجهها الذى امتقع لونه حتى صار كوجوه الموتى ! .. وأرسلت الى بطرس الكسندروفتش اشارة توسل .. كان كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى بعد .. وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء ، فاضطرب ، وكان واضحا من اشارتى اننى فهمت كلماته كل الفهم ، واننى اذن على علم ببعض الامور التى ظلت حتى ذلك الحين سرا !

ـ آنيت ، اذهبى الى غرفتك ، اننى فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع بطرس الكسندروفتش .

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لكنه جازم، وقد نهضت عن كرسيها .

كانت تبدو هادئة ، الا أن هدوءها أخافنى أكثر من أى انفعال ممكن ، ولبثت فى مكانى لا أستطيع حراكا ، كأنى لم أسمع ما قالته . كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أقرأ على صفحة وجهها ما دار فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى أنها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ..

وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهو يمسك ذراعى ويرينى امرأته :

ــ كان لك ما اردت ياآنسة !

رباه ! لم أر فى حياتى يأسا كالذى أراه الآن فى هذا الوجه المتشنج، فى هذا الوجه الميت !.. وتناول بطرس الكسندروفتش يدى ، ودفعنى الى خارج الغرفة ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخيرة . كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستندة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها . كان وضعها كله ينبىء عن ألم لا سبيل الى وصفه . فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

ــ حبا بالله ، حبا بالله ، ترفق بها ..

فأجاب وهو يلفنى بنظرة غريبة :

ــ لاتخافى ، لا تخافى ، ما من خطر . هى نوبة ثم تنقضى . اذهبى . اذهبى .

فلما وصلت الى غرفتى ، ارتميت على الديوان ، ووجهى بين ذراعى . ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال فى جحيم حقيقى . ثم لم أستطع صبرا فأرسلت أسأل هل تسمح لى الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجىء اليها ؟ .. وجاءتنى مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن

تبلغنى أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا فى حاجة الى الراحة . ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على أن أذهب وأجىء فى غرفتى ، من شدة شعورى بحرج وضعى . ومع ذلك كنت أتخفف من قلقى مرددة اننى المذنبة الاولى . ثم نمت انتظر الغد بفارغ الصبر ..

لكننى لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا فى الغد شيئا من الفتور نحوى ، فأدهشنى ذلك واحزننى . اعتقدت فى أول الامر أن هذه المرأة ذات القلب النبيل الطاهر يؤلمها أن ترى نفسها معى بعد أن شهدت أزمة البارحة على غير ارادة منى ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وأن تسألنى ، كطفلة أيضا ، أن أغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءنى . **ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لاتستطيع من سذاجتها اخفاءه . فكانت تارة تجيبنى بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفلها وتداعبنى كأنها تأسف فجأة على ما بدر منها من قسوة ، قسوة لا يمكن أن تكون فى قلبها ..** وكانت كلماتها فى هذه الحالة الاخيرة تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب . وأخيرا سألتها صراحة عما بها ، وعما اذا كانت تريد أن تقول لى شيئا بالذات ، وهزها سؤالى

العنيف بعض الشىء ، الا أنها لم تلبث أن رفعت عينيها الواسعتين الرقيقتين ، ونظرت الى تقول فى ابتسامة عذبة :

ـ ليس بى شىء ، يانيتوتشكا ، الا أنك تعرفين أننى أضطرب حين يوجه الى سؤال مباغت . وهذا ما فعلته الآن .. أؤكد لك ذلك .. ولكن اسمعى يا بنيتى وصارحينى بالحقيقة : هل فى قلبك شىء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلت سؤالا مباغتا لا تتوقعينه ؟

ـ كلا .

قلت ذلك وأنا أنظر اليها دون مواربة .

ـ حسنا جدا . لو تعلمين ياعزيزتى كم أشكر لك هذا الجواب الجميل .. وليس معنى هذا اننى أستطيع أن أظن فيك السوء ، أبدا ، اننى لا أسمح لنفسى بفكرة كهذه . ولكن افهمى : حين أخذتك فى بيتى كنت طفلة صغيرة ، وأنت الآن فى السابعة عشرة من عمرك ، وأنا الآن مريضة ، فالطفلة الان هى أنا ، وأنا التى يجب أن يعتنى بها . لم استطع أن أكون أمك كما كنت أحب أن أكون ، على أن الحب ليس هو ما أعوزنى ؛ ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست أنت المسؤولة عن ذلك ، وانما هى خطيئتى . اغفرى لى السؤال الذى طرحته عليك ، واغفرى لى أيضا اننى لم أف بكل الوعود التى قطعتها لأبى حين أخذتك فى هذا البيت ، وأن هذا أيضا ليقلقنى

كثيرا ، وكثيرا ما عذبنى ، ياعزيزتى :

ارتميت على عنقها باكية . ثم قلت وأنا أغرق يديها بدموعى :

ـ ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ماصنعت فى سبيلى. لا تتكلمى هكذا ، انك تهصرين قلبى هصرا . لقد كنت لى أكثر من أم . نعم ، اننى أسأل الله أن يجزيكما خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والامير ، من أجلى ، أنا اليتيمة البائسة . آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة اللطيفة !

ـ كفى يانيتوتشكا ، كفى ! قبلينى قبلة أعنف ، قبلة أقوى . هل تريدين أن أقول لك ؟ اننى أشعر أن قبلتك هذه هى الاخوة ، لا أدرى من أين يأتينى هذا الهاجس !

فاحتججت أقول ، وأنا أنتحب كما ينتحب الاطفال :

ـ كلا . كلا . لاتقولى هذا . ستعيشين أياما سعيدة كثيرة .. ستعيشين أياما جميلة . صدقينى . سنكون سعيدتين .

ـ شكرا ، شكرا على انك تحبيننى هذا الحب كله . ليس من حولى الآن ناس كثيرون .. لقد هجرونى .

ـ من هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

ـ كان من حولى فى الماضى أشخاص آخرون . الا أنهم هجرونى جميعا . لقد تبددوا كلهم كما يتبدد السراب .

وانتظرتهم طويلا منذ ذلك الحين .. لم أفعل شيئا غير الانتظار ، طوال حياتى كلها .. ليباركهم الله ! **هل ترين يانيتوتشكا ، أن الخريف يتقدم بنا ، وقريبا يتساقط الثلج ، وسأموت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج . نعم ، وان هذا ليحزن قلبى . وداعا .**

كان وجهها شاحبا نحيلا ، وكان على كل خد من خديها بقعة حمراء ملتهبة ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وقد جففتهما الحمى الداخلية .

واقتربت من البيانو ، وعزفت بعض الانغام . وفجأة انقطع أحد الاوتار .. فدوى من انقطاعه صوت مباغت ، امتد ثم انطفأ فى ارتجاف .

وقالت بصوت ملهم وهى تشير الى البيانو :

ـ هل تسمعين يا نيتوتشكا ؟ هل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر مما ينبغى أن يشد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات . لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم فى عناء . وكان الالم الاصم الذى يضطرم فى نفسها يشع فى وجهها ، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع .

ـ هيا يانيتوتشكا ، كفى كلاما فى هذا الموضوع ، كفى ياعزيزتى ، كفى . هيا أحضرى الاولاد .

وأتيت بالطفلين .. ولاح عليها الارتياح وهى تنظر اليهما ،

وصرفتهما بعد ربع ساعة .

ـ حين أموت ، لن تتركيهما ، يانيتوتشكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيرى !

ـ أسكتى ، أسكتى ، انك تقتليننى قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به .

فقالت وهى تبتسم بعد لحظة من صمت :

ـ اننى أمزح . هل صدقت قولى ؟ ألا تعرفين اننى فى بعض الاحيان أهرف فى الكلام هرفا . اننى الآن طفلة ، طفلة ، واننى فى حاجة الى أن يغفر لى ..

وألقت على نظرة خجلى ، كأنما هى تخشى أن تقول أكثر مما ينبغى أن تقول .

وانتظرت ..

وأخيرا قالت وقد أغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمرة خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يسمع :

ـ حاذرى أن تخيفيه .

ـ من ؟

سألتها فى دهشة ظاهرة .

ـ زوجى . لا شك أنك ستقصين عليه كل شىء .

وازدادت دهشتى قوة ، فهتفت أسألها :

ــ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ــ حسنا . قد لا تقولين له شيئا على كل حال .

قالت ذلك وهى تحاول جهدها أن تنظر الى نظرة ماكرة ، الا أن ابتسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمر فى وجنتيها التهابا . وأردفت تقول :

ــ كفى كلاما فى هذا الموضوع . كنت أمزح . هذا كل ما فى الامر . وكان قلبى يزداد انقباضا .

واردفت تقول ــ بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة ــ مرة أخرى :

ــ اسمعى مع ذلك . انك ستحببينهما بعد موتى ، أليس كذلك ؟ ستحببينهما كأنهما ابناك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما اقول ، وتذكرى اننى احببتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ..

فهتفت ، دون ان اعرف ماذا اقول ، وأنا ألهث وأختنق بدموعى :

ــ نعم ، نعم .

وتناولت يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبلة محرقة قبل ان استطيع سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم استطع ان أنبس بكلمة .

وتساءلت فجأة : ((ترى ماذا بها ؟ فيم تفكر ؟ ما الذى وقع بينهما البارحة ؟)) .

وبعد دقيقة شكت من انها متعبة ، وقالت :

ــ اننى مريضة منذ مدة طويلة ، غير اننى لم أشــــأ ان اخيفكما لانكما تحبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والان هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعينى الان ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدين ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

وعدتها بان أعود فى المساء . وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ، فاننى لم أعد أحتمل اكثر مما احتملت .

وصرخت وأنا أشهق : « مسكينة أيتها البائسة ! أى شك يستحثك الى القبر . أية لوعة جديدة تسممك وتعض قلبك دون ان تجرؤى على ان تقولى عنها كلمة واحدة ؟ رباه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذه الحياة القاتمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الخجـول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشـكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟ .. وهذه المـرأة الممزقة التى ترتعد كأنها مجرمة ، كيف تستطيع ان تصنع لنفســها ألما جديدا تخضع له وتموت منه ؟! »

***

وفى المساء ، عند الشفق ، انتهزت فرصـة غياب أوفروف ــ سكرتير بطرس الكســندروفتش ــ فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها واخذت أنبشها لأجـد كتابا أقرؤه



« .. كنت اشعر انه « يصنع » لنفسه وجهـا !.. فما أن يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة .. » (ص ٢٧١)

بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا . كنت أحب ان أسليها عن خواطرها السود ، فكنت أبحث عن شيء سهل مفرح . ولبثت ابحث مدة طويلة وانا ذاهلة اللب . وتكاثف الشفق ، واخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، واخذ غمى يزداد قوة وعمقا . ووقع بين يدى مرة أخرى ذلك الكتاب الذى وجدت فيه الرسالة ، ورأيت آثار شكل الرسالة على الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت احتفظ بهذه الرسالة فى قميصى .. هذه الرسالة التى حملت الى الصقيع، والمجهول ، والسر ، والتى كانت تؤثر فى حتى الآن تأثيرا نذيرا بالشر !.. وساءلت نفسى : « **ترى ما الذى سيقع لنا ؟ ان الركن الدافئ الذى كنت ألتجئ اليه سيتهدم .. ان النفس الصافية الرائقة التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى . ما الذى ينتظرنى ؟** » كنت كأنما نسيت ماضى ، رغم أنه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر اكثر ما أفكر فى المستقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول . اننى أستطيع ان أعيش تلك اللحظة بكاملها مرة أخرى ، لأنها منقوشة فى ذاكرتى نقشا عميقا .

كنت أمسك بين يدى الكتاب والرسالة ، وكنت غارقة فى دموعى . وفجأة انتفضت مذعورة . ان صوتا اعرفه كل المعرفة يرن فوقى . واحسست فى الوقت نفسه بأن الرسالة

تنتزع من بين يدى . فصرخت وانتصبت واقفـة ، فرأيت بطرس الكسندروفتش أمامى !.. وامسكنى من يدى بقبضة قوية وسمرنى فى مكانى ، بينما مد الرسالة باليد الاخرى نحو النور محاولا ان يقرأها . وصرخت . كنت افضل ان أموت على ان ادع له الرسالة !.. ورأيت من بسمته الظافرة انه توصل الى قراءة سطورها الاولى . طاش لبى .. وما هى الا دقيقة واحدة حتى ارتميت عليه وانا لا اكاد اعى ما افعل فانتزعت الرسالة من بين يديه . وقد تم ذلك بسرعة عظيمة حتى اننى لا افهم الى الآن كيف عادت الرسالة الى يدى . لكننى وقد لاحظت انه يهم ان ينتزع منى الرسالة مرة ثانية ، دسستها بسرعة فى قميصى ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة فى صمت . وكنت ما ازال ارتجف خوفا ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفتاه المرتجفتان قد ازرقتا من شدة الغضب ، فقال فى صوت أصم :

ـ لا تضطرينى الى استعمال القوة . اعطينى هذه الرسالة بارادتك !

كان الشعور بالعار والامتعاض قد قلب نفسى رأسا على عقب ، وتلك الاهانة الفظة قد خنقت انفاسى . فانهمرت سيول من دموع محرقة على خدي الملتهبين .

ولبثت مدة طويلة لا استطيع من هول الاضطراب والارتجاف ان انبس بكلمة .. فقال وهو يتقدم مني خطوتين :

ـ هل تسمعين ؟

فصرخت وانا أبتعد عنه :

ـ دعني ، دعني . ان ما تفعله شر . ان ما تفعله لحقير خسيس . انك تنسى نفسك !.. دعني امضي .

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت تجرؤين على مخاطبتي بهذه اللهجة .. بعد ان .. آمرك بان تعطيني هذه الرسالة ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم مني خطوة اخرى ، الا انه وقد لمح في عيني قوة الاصرار والعناد ، توقف متحيرا . وقال اخيرا بلهجة جافة ، تنطوي على الاصرار ، وان جاهد لكبح جماح نفسه :

ـ حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومحله . ولكن قولي لي اولا من ذا الذي أدخلك المكتبة ؟ ولماذا ارى الخزانة مفتوحة ؟ من اين اخذت المفتاح ؟

قال ذلك بعد ان أجال بصره من حوله .. فانبريت له :

ـ لن اجيب على سؤالك . ولا استطيع ان اتناقش معك . دعني امضي . دعني !

واقتربت من الباب . فقال وهو يمسكني من ذراعي :

ـ لا . لن تخرجي هكذا !

وانتزعت ذراعى منه دون ان اقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطوة أخرى نحو الباب :

ـ اعلمى اننى لا اسمح لك بان تتلقى فى بيتى رسائل غرام من عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظرات مجنونة .

ـ لذلك ..

ـ كفى .. لا اسمح لك بان تخاطبنى هكذا .. يا الهى ، يا الهى !

ـ هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صعقت من هول ما انتابنى من ذعر ويأس . ان هذا المشهد قد بلغ من القسوة حدا لا استطيع معه ان افهم ولا ان اعى ، فنظرت الى بطرس الكسندروفتش اتوسل اليـــه بعينى ان يسكت . كنت مستعدة لان اغفر له ظنـــونه على شريطة ان يتوقف عن الكلام . فحدق فى وقد لاح فى وجهه تردد ظاهر . همست مذعورة :

ـ لا تخرجنى عن طورى !

فهتف أخيرا كأنما هو قد عزم امرا :

ـ كلا ، لن ينتهى الامر هكذا .

ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

– اعترف لك ان نظرتك كادت تردنى عن ظنونى ، الا ان الاشياء تتحدث من تلقاء نفسها ، وا أسفاه . لقد استطعت ان اقرأ بداية هذه الرسالة . انها رسالة غرامية . لن تستطيعى ان تحولينى عن اقتناعى هذا . كلا ، انتزعى هذه الفكرة من رأسك . ولئن ترددت دقيقة أو بعض دقيقة فهذا لا يزيد على ان يدل على اننى يجب ان اضيف الى مزاياك الرائعة مزية اخرى هى القدرة على الكذب فى كثير من البراعة .. لذلك اكرر ..

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكره . كان ممتقع اللون ، وكانت شفتاه المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع ان يلفظ الكلمات الاخيرة الا فى كثير من العناء .

كان الظلام قد خيم ، **وكنت اشعر اننى وحدى تحت رحمة هذا الرجل القادر على اهانة امرأة . ثم ان الدلائل كلها كانت تديننى ، ومع ذلك كنت اتساءل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشعور بالعار والقلق كان يحطمنى تحطيما** . وهرعت كالمجنونة دون ان اجيب على كلامه ، فخرجت من المكتبة ، ولم يثب الى رشدى الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت ان ادخل اليها سمعت ورائى وقع خطوات بطرس الكسندروفتش ، فتسمرت فى

مكانى كأن صاعقة وقعت على رأسى .

تساءلت فى سرعة البرق : « ترى ما الذى سيحدث ؟ ان كل شىء افضل من هذه الضربة الاخيرة التى قد تتلقاها .. »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الاوان كان قد فات ، فها هو ذا الى جانبى . همست وانا امسك بذراعه :

ـ رحمة بها . نذهب أين تشاء . لكن لا ندخل الى هنا . اعود الى المكتبة او الى أى مكان آخر ، الى أى مكان تشاء . والا قتلتها !

فأجاب وهو يبعدنى عنه :

ـ انت التى تقتلينها .

وتبدد من قلبى كل رجاء . شعرت ان ما يريده انما هو ان يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث .

فقلت وانا اصده بكل ما اوتيت من قوة :

ـ حبا بالله ، ارحمها ..

ولكن فى هذه اللحظة فتح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا امامنا .

نظرت الينا فى دهشة ، وكان وجهها ممتقعا اكثر منه فى أى وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا انها وقد سمعت اصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها .

سألتنا وهى تنظر الينا فى غير قليل من الدهشة :

ــ ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضـــع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتميت عليها وعانقتها وادخلتها الى مخـــدعها ، ولحق بى بطرس الكسندروفتش ، ولبثت اعـــانق الكســــــندرين ميخائيلوفنا فى قوة وعنف وقد اغرقت وجهى فى صدرها الذى يخفق خفقانا عنيفا .

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة اخرى :

ــ ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

ــ اسألى الآنسة . لقد دافعت عنها أمس .

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتمى على احد المقاعد فى ثقل وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقـــول وقد لاحت على وجهها خشية غريبة :

ــ يا الهى ! ماذا وقـــع ؟ انك مضطرب ، وهى خائفة . انها تبكى . قولى لى يا آنيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفتش وقد اقترب منى وامسك بكتفى وابعدنى عن امرأته :

ــ كلا ، دعينى اتكلم قبلها .

ثم اضاف وهو يضعنى فى وسط الغرفة :

ــ ابقى هنا ، سأحاكمك امام تلك التى كانت لك اما !

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقول لها :

ـ وانت ، هدئى روعك ، يؤسفنى اننى لا استطيع ان اجنبك شرح هذه المسألة البشعة ، ولكن لابد من ذلك .

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تنقل نظرتها القلقة الرهيبة بين زوجها وبينى :

ـ رباه ! ماذا هنالك ؟

واخذت اقلب يدي وافركهما فى انتظار الدقيقة الرهيبة . ان المرء لا يستطيع ان يأمل من هذا الرجل اى شعور بالرحمة .

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ سأقول لك ذلك بايجاز ، والذى اريده هو ان تحكمى عليها معى . لقد كنت دائما تتخزبين لها وتدافعين عنها ـ لا ادري لماذا ، فتلك نزوة من نزواتك ـ حتى لقد ناقشتني بالامس في شأنها واستبسلت فى الدفاع عنها .. ولا ادرى الآن كيف اشرح لك الامر . اننى لأحمر خجلا حين افكر فيه .. الخلاصة انك قد دافعت عنها واغرقتني باللوم واتهمتني بقسوة لا محل لها ، حتى لقد لمحت الى عاطفة اخرى لعلها هى التى تدفعنى الى هذه القسوة التى لا محل لها ، انك .. ولكنني اتساءل لماذا لا اتوصل الى خنق جمرة الخجل هذه

التى تصعد الى وجهى حين افكر فيما ذهبت اليه من افتراضات . لا ادرى لماذا لا استطيع أن اتكلم عن ذلك بهدوء وصراحة امامها .. الخلاصة انك ..

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحمى والشعور بالخجل وقالت :

- كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالامس كان من بنات خيالى انا ، اما الآن فلم يبق فى نفسى ظل من شك . اغفر لى تلك الظنون التى راودتنى . نعم اغفرها لى ، اننى مريضة ، ويجب ان يغفر لى ، ويجب خاصة ان لا يقال لها شىء من ذلك البتة .

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

- آنيت آنيت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقد اراد ان يمزح ، أنا المذنبة ، وتلك مزحة فى غير محلها .

واستمر بطرس الكسندروفتش يقول دون ان يرحمها ودون أن يهتز لضراعاتها :

- الخلاصة : لقد كنت غيورة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتداعى ساقاها ، فتهافتت على احد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

- سامحك الله ، سامحيني يانيتوتشكا ، انه ذنبي ، انني

مريضة . اننى مريضة ، اننى ..

فصرخت انا كالمجنونة ، وقد فهمت اخيرا لماذا يريد ان يحكم على امام امرأته :

ـ هذا ظلم . هذا عار . هذا جبن . هذه حقارة . هذه خسة . انك ..

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تأخذ يدى :

ـ آنيت !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا لا يوصف :

ـ هذه مهزلة ، لا أكثر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يغرز فى امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

ـ هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة أنت !.. اما نحن (قال ذلك لاهثا وهو يشير الى بيده) فثقى اننا لا نخشى شيئا من مثل هذا الايضاح . ثقى اننا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض او نحمر او نسد آذاننا حين نتحدث عن امور من هذا النوع . معذرة ، اننى أتكلم بلا لف ولا دوران ، وربما كان كلامى خشنا ولكن لابد من ذلك . هل انت واثقة يا سيدتى من طهارة هذه .. البنت !

فغمغمت الكسندرين ميخائيلوفنا كالميتة من شدة الخوف تقول :

ـ رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

ـ لا تستعملى الفاظا جوفاء . أرجوك . اننى لا أحب ذلك . نحن الآن أمام حادث لاتعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتذل الى آخر حدود الابتذال . اننى أسأل عن سلوكها . هل تعلمين أن ..

ولكننى لم أدعه يتابع كلامه ، بل أمسكت بذراعه وجررته بقوة وعنف الى ركن من أركان الغرفة ـ فلو قد انقضت على ذلك ثانية أخرى لأمكن أن يضيع كل شىء ـ وهمست فى حماسة أقول له :

ـ لاتتكلم عن الرسالة ، والا قتلتها على الفور . ان اتهامى اتهام لها أيضا . انها لا تستطيع أن تحكم على لأننى أعرف كل شىء .. كل شىء .. هل تسمع ؟

فرمانى بنظرة ثابتة وحشية وأخذ يضحك ، وكان الدم قد صعد الى وجهه ، فكررت أقول :

ـ أعلم كل شىء ، كل شىء ..

فظهرت عليه علائم التردد وطاف فى شفتيه سؤال حزرته .

والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقة وقد ظهر فى محياها الوجل والخجل . قلت بصوت عال :

ـ أنا وحدى المذنبة . اننى أخدعك منذ أربع سنين ! .. لقد أخذت مفتاح المكتبة وكنت أمضى اليها فى كل يوم منذ أربع سنين آخذ كتبا ، وقد فاجأنى بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدى كتابا ينبغى أن لا أقرأه . وهو يخاف على ويتصور الخطر كبيرا !

ثم أردفت أقول بحماسة ، وقد لاحظت أنه يبتسم :

ـ على اننى لا أحاول أن أبرر ذنبى . أنا وحدى المذنبة . لقد كان الاغراء أقوى منى . فلما وقعت فى هذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف بها .. هذا كل شىء . نعم هذا كل ما كان بيننا .

ـ أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك فى اذنى .

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصغى الى بانتباه عميق، ولكن وجهها كله كان يعبر عن الارتياب فيما أقول . كانت تنقل بصرها بين زوجها وبينى بلا انقطاع . وخيم الصمت . كنت لا أستطيع أن اتنفس الا فى كثير من العناء . ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت عينيها بيديها

كأنهـا تريد أن تفكر وأن تزن كل كلمـة من الكلمـات التى قلتها . ورفعت أخيرا رأسها وحدقت فى قائلة :

— نيتوتشكا ، صغيرتى ، اننى أعلم أنك لا تستطيعـين الكذب . هل هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

— نعم . هذا كل ما حدث .

فاتجهت الى زوجها تسأله :

— هل هذا كل ما حدث ؟

فغمغم بالرغم منه قائلا :

— نعم . هذا كل ما حدث ، كله .

— هل تقسمين على ذلك يانيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

— نعم . أقسم .

الا اننى لم أستطع أن احتمل نظرة بطرس الكسندروفتش ولا الابتسامة التى ارتسمت على فمه حين سمعنى أقسم ، فاحمررت فجأة .. **ولم يخف ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فانطبعت على وجهها علائم قلق ساحق فظيع !**

وقالت فى حزن :

— كفى . أصدقكما . لاأستطيع الا أن أصدقكما .

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

– ان الاعتراف كاف فيما أرى . هل سمعت ماقالت ؟ فما رأيك اذن ؟

ثم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا . وكان المشهد يزداد قسوة على نفسى .

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلا :

– سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدرى ماذا عندنا منها فى المكتبة ، ثم ..

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

– أى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الى يقول ، وهو يبتسم ابتسامة واضحة :

– أى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر .

ولم أستطع أن أجيب من شدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، واعقب ذلك صمت طويل .. فأخذ بطرس الكسندروفتش يذهب ويجىء فى طول الغرفة وعرضها وقد بدا على وجهه الانزعاج .

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

– اننى أجهل ما حدث بينكما ..

ثم أردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد

أوشكت أن تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التى كان يرميها بها زوجها ـ وكانت هى تحاول أن تتحاشاها ـ أردفت تقول :

ـ اذا كان هذا كل ما حدث فاننى لا أفهم هذا الغم الذى يسيطر علينا نحن الثلاثة . ان الذى ينبغى أن يلام انما هو أنا ، أنا وحدى ، وذلك ما يعذبنى . لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمل تبعة ذلك ، وعلى نيتوتشكا أن تسامحنى . أما أنا فلا اشعر أن من حقى أن أحكم عليها . وانى لأتساءل مرة اخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى . انظر اليها (قالت ذلك وقد ازدادت حماستها وهى ترمى زوجها بنظرة فاحصة) أنظر اليها . هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتى الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل مايشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟ (قالت ذلك وهي تجذبني اليها بحركة مداعبة) . ان لها روحا صافية كالنهار ، وضميرا لا يمكن أن يخطيء .. كفى يا عزيزى ، كفى . لا شك أنه قد اندس في كربنا المشترك عنصر جديد . لعل ظلا من عداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحب وحسن التفاهم . سنطرد جميع شكوكنا ، ربما كان هنالك حتى الآن أشياء

كثيرة لم نوضحها فيما بيننا ، وأنا المسؤولة الاولى عن ذلك .
أنا المسؤولة الاولى لأننى أول من خبأت نفسى عنكما ولأننى أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن ينبت فى نفسى ، وهذا كله يرجع الى رأسى البائس المريض . ولكن .. ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تغفر الى ، لأن مادار فى خلدى من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال .

ونظرت مرة أخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به . وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها . انقطع عن السير وتسمر امام امرأته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره . كان كأنما هو سر برؤية الاضطراب الذى يراه على وجهها . وزاد اضطرابها امام هذه النظرة التي يرميها بها . وانتظر قليلا كأنما هو يريد أن يتيح لها أن تتابع حديثها ، فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا . واخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف في ضحكة ساخرة ، مرة ، متطاولة ، يقول :

— **إنني ارثى لحالك أيتها المرأة البائسة .**

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وقورة كالحة :

— لقد اضطلعت بدور يفوق ما تملكين من قوى . ماذا كنت تريدين من ذلك ؟ كنت تريدين أن تحمليني على الاجابة ؛ أن تفرضي بشكوك جديدة ؛ أو على الاصح بشكوك

قديمة لا تستطيع كلماتك أن تخفيها . ان معنى كلماتك هو أنه ينبغى أن لا نؤاخذ نيتوتشكا لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتب غير اخلاقية ، هذه القراءة التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ الا أن فى هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تلميحا ، فأنت تعتقدين أن ارتيابى وقسوتى ترجعان الى عاطفة أخرى ، حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامى . أرجوك ، دعينى أتكلم ، اننى أحب أن اتكلم بلا لف ولا دوران . نعم لقد أردت أن تقولى أمس أن الحب لدى بعض الاشخاص (ومن الملاحظة ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رأيك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى .. الى آخر ما هنالك من صفات أغدقها عليهم كرمك !) .. ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص (يعلم الله لماذا لفقت هذا !) لا يمكن ان يعبر عن نفسه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيان ، مستعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيان أيضا . لا أذكر الآن على وجه الدقة الكلمات التى استعملتها أمس .. أرجوك ، دعينى أتكلم . انها تستطيع أن تسمع كل شىء ، كل شىء ، أكرر ذلك للمرة المائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شىء ، انك مخدوعة فى أمرها . ولكننى لا أفهم لماذا يحلو لك أن تحشرينى فى زمرة هذا النوع من الاشخاص !..

ليس فى سنى يقع المرء فى عشق بنت كهذه ، وصدقينى أخيرا ، ياسيدتى ، اذا قلت لك اننى أعرف واجبى ، ومهما تصدعى رأسى بنبل نفسك فسأظل أكرر لك ما سبق أن قلته ، وهو : ان الجريمة تبقى جريمة ، وان الخطيئة تبقى خطيئة ، انها تظل حقيرة ، منحطة ، مثيرة للاشمئزاز ، رغم السمو الذى نحب أن ترفع اليه عاطفة الرذيلة . ولكن كفى كفى ، لا أحب أن أسمع بعد الآن شيئا عن هذه الحقارات .

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكى .

وقالت أخيرا وهى تشهق وتحيطنى بذراعيها :

ـ اننى أقبل أن أتحمل هذا كله وحدى . أتمنى ان تكون ظنونى دنيئة وان تنظر اليها نظرة احتقار . ولكن أنت أيتها البائسة لماذا حكم عليك أن تسمعى هذه الاتهامات المهينة ؟ اننى لا أستطيع أن أحميك . اننى لا أملك حق الكلام ! رباه ! اننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت ياسيدى . ان الامر أقوى منى .. ان ما تقوله جنون ..

فهمست فى أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

ـ كفى ، كفى .

كنت أخشى أن يزيد هذا الكلام القاسى الذى وجهته اليه ، أن يزيد فى غضبه وسخطه ، وكنت ارتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

— ولكن أيتها المرأة العميـاء ، أنت اذن لا تعلمين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة ، ثم استأنف كلامه وهو يتجه الى وينتزعنى من بين ذراعى امرأته :

— اذهبى من هنا . لا أسمح لك بأن تلمسيهـــا . انك تلوثين زوجتى ، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

— ولكن فيـم أحرص على الســكوت حـين يكون من الضرورى الذى لابد منه أن أتكلم ؟ .. سأقول كل شىء ، كل شىء . اننى لا أدرى ، ياآنسـة ، ما الذى تعرفينـه ، ولا أعلم هذا الامر الذى تظنين أنك تهددينني بـه ، ثم اننى لا أحب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

— اسمعى ، أقول لك اسمعى ..

فهتفت وقد هرعت ادخل بينها وبينه :

— اسكت !

— اسمعى !

— اسكت باسم ..

فقاطعنى بعنف وهو يرمقنى بنظرة متحدية :

— باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعى ياسيدتى . **لقــد**

انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ... هذا مايجرى فى بيتك ، هذا ماتعمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا مالا ترينه ، ولا تحبين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر . ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا هى صفراء كالميتة ..

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يسمع :

ـ مستحيل !

ـ لقد رأيت هذه الرسالة ، وأمسكتها بيدى ، وقرأت منها الاسطر الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك . انها رسالة غرام ولقد انتزعتها من بين يدى ، وهى الآن معها . الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا . وان كنت فى شك من الامر مع ذلك فما عليك الا أن ترى الرسالة ، فتحكمى بنفسك !

فهتفت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى ترتمى نحوى :

ـ نيتوتشكا .. ولكن لا ، اسكتى ، اسكتى . يا الهى ! كيف يمكن أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها فى يديهـــا وهى تنشج نشيجا قويا ، ثم استأنفت تقول :

ـ ولكن لا . هذا مستحيل !

ثم حدقت فى زوجها قائلة :

ـ أنت مخطىء . لست أفهم ما معنى هـذا كله ! انك لم

تخدعينى ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصى على كل شىء دون أن تخبئى شيئا ؟ لقد أخطـــأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنيت ، لماذا لا تقولين لى كل شىء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فهتف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

ـ أجيبى . لماذا لا تجيبين ؟ أجيبى : هل رأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

ـ نعم .

ـ وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

ـ نعم !

ـ وما زالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

ـ نعم ، نعم ، نعم .

قلت ذلك دون أن يعنينى هل أنا أجيب على الاسئلة التى تطرح على ، فقد كان كل همى أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة .

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

ـ هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ ان قلبك مسرف فى النبل مسرف فى حسن الظن ! صدقينى ،

دعى هذه الافتراضات التى نبتت فى دماغك المريض .. انك ترين الآن حقيقة هذه .. البنت .. لقد حرصت على أن أبين لك خطل ظنونك . لاحظت ذلك منذ زمان طويل . ويسعدنى أخيرا أن أنتزع من ذهنك ما علق فيه من رأى حسن فيها . **كان يؤلمنى أن اراها الى جانبك ، وان اراك تداعبينها ، وأن تجلس الى مائدتنا ، وأن أحس بوجودها فى بيتنا ، كانت عماوتك تثيرنى . ولهذا السبب ، لهذا السبب وحده انتبهت اليها ، وراقبتها** . ولاحظت أنت ذلك فنسجت حوله ألف شىء وشىء ، الا ان كل شىء قد اتضح الآن ، وأصبح الشك غير جائز .

ثم التفت الى يختم كلامه قائلا :

ـ غدا يا آنسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت الكسندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

ـ لا تتعجل . اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها . لا تنظر الى هذه النظرة الفظيعة ، لا تسخر منى . سأجعلك حكما على رأيى . آنيت ، بنيتى ، تعالى الى جانبى ، اعطينى يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول فى صوت غارق فى الدموع وهى تنظر الى زوجها فى تواضع وذل :

ـ ما من أحد معصوم من الخطيئة ، من ذا الذى يستطيع

منا أن يرفض يد أحد ! اعطيني يدك يا آنيت ، يا ابنتي . انني لست أفضل منك ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسيئني ، لأنني أنا أيضا خاطئة .

فصرخ بطرس الكسندروفتش دهشا :

ـ سيدتي ، سيدتي ، انك تنسين نفسك ، عودي الى صوابك !

ـ انني لا أنسى نفسي . أرجوك أن لا تقاطعني ، دعني أتم كلامي حتى النهاية . لقد رأيت بين يديها رسالة ، بل لقد قرأت الرسالة . وأنت تزعم ـ وهي تعترف ـ ان هذه الرسالة من عشيقها !.. انني لا أدافع عن الرذيلة ، ولو أردت أن أفكر ، لفهمت أولشعرت ان هذه الطفلة ربما كانت بريئة!.. كلا ، انني لا أحاول أن اغفر الرذيلة ! ها أنا ذا أبرىء نفسي من ذلك لأريحك . **نعم ، لو كانت نيتوتشكا زوجة ، لو كانت أما نسيت واجباتها ، لوافقتك على رأيك . ها أنت ترى اذن انني لا استثني نفسي .. انظر الي ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذني وتحنق علي . لعلها اذن تلقت هذه الرسالة دون أن تفكر في سوء . لعل عاطفة مفاجئة قد جرفتها دون أن يكون هنالك من يصدها ويأخذ بيدها !.. واذا كان الامر كذلك فانا المذنبة الوحيدة لأنني لم اراقب قلبها . لعل هذه الرسالة هي الاولى ، ولعلك بظنونك الفظة قد دنست العاطفة المقدسة التي**

تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هذه الطفلة !.. انك اذن لم تر شيئا من هذا الخفر الذى يشع فى وجهها الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق لها ، لأنها فى اضطراب شديد وارتباك عظيم ، ولأنها تريد أن تتخلص من عذاب هذه الاسئلة التى لا محل لها . نعم ، نعم ، ان هذه الاسئلة لا محل لها ، انها وحشية ، خالية من العاطفة الانسانية . اننى أستنكر تصرفك . لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

ـ نعم ، ارحمينى ، دافعى عنى ، أتوسل اليك . لا تتركينى .

وسقطت على ركبتيها .

.. بينما تابعت هى كلامها تقول بصوت مخنوق :

ـ ولولا اننى موجودة ، فلربما كنت أخفتها بكلامك ، الى حد اقناعها بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضميرها وحطمت قلبها .. يا الهى ! كنت تنوى أن تطردها ! ولكن هل تعلم انك ان طردتها طردتنى معها . نعم ، ان طردتها طردتنا كلتينا . هل سمعت ما أقول يا سيدى ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقد أوشك انفعالها المرضى أن يبلغ درجة التشنج .

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

– يكفى هذا يا سيدتى . لقد سمعت ! كفى ، كفى . اننى أعلم ان هنالك عواطف أفلاطونيــة ، أعرف ذلك على حساب شقائى ، يا سـيدتى ، هل تسمعين ؟.. نعم على حساب شقائى ، لأننى لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتى . لست أحب هذا . لا تذرى الرماد فى العيون !.. اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تتركى البيت .. فمـا على الا أن أذكرك بأنك أخطأت فى أنك لم تنفذى هذا المشروع فى الوقت المناسب، منذ .. نعم ، استطيع أن أحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنت قد نسيته !

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا . كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت مستندة الى وقد خارت قواها من فرط ما حبست ألمها . ما هى الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مغمى عليها !

فصرخت وأنا أرتمى على ركبتى بطرس الكسندروفتش :

– أوه . حبا بالله ، ارحمها ، ارحمها . لا تزد على ماقلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات . فها أنا أسمع جواب كلماتى صرخة ضعيفة ، وها هى المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

ــ انتهى الامر . قتلتها . ادع الناس . انقذها . سأنتظرك فى حجرة عملك . أريد أن أكلمك . سأقول لك كل شىء ..!

ــ كل شىء ؟ عن ماذا ؟

ــ فيما بعد .

ودامت الازمات العصبية بعد الاغماء ساعتين ، واهتز البيت كله وانقلب رأسا على عقب . وهز الطبيب رأسه وقد ظهرت فى وجهه علائم القلق . وبعد ساعتين دخل بطرس الكسندروفتش الى حجرة عمله . لقد ترك زوجته منذ لحظة . كان ممتقع اللون مضطربا ، فأخذ يمشى فى طول الغرفة وعرضها جيئة وذهابا ، ويقرض أظافره بقوة حتى ليخرج من أصابعه الدم . لم أره فى حياتى على مثل هذه الحال !

وأخيرا قال بصوت مبحوح خشن :

ــ ماذا تريدين أن تقولى لى ؟

ــ اليك الرسالة التى أردت أن تنتزعها منى . أهذه هى ؟

ــ نعم .

ــ خذ .

فأخذ الرسالة وحملها الى النور . راقبته بانتباه شديد .

وما هى الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقـــرأ التوقيع المذيل به .. ورأيت الدم يصعد الى وجهه !

سألنى وقد تجمد من فرط الدهشة .

ــ ما معنى هذا ؟

ــ وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين فى أحد الكتب ، ففهمت انها نسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شيء . وقـد احتفظت بها منذ ذلك الوقت وأنا لاأدرى لمن يجب أن أعطيها . كنت لا أستطيع ان اردها اليهـــا هى .. أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئا من هذه القصـة الحزينة . لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدرى !.. ان ذلك ما زال غامضا فى ذهنى . اننى لا أستطيع أن أنفذ الى خفايا نفسك . لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك . ولكن لماذا ؟ لكى تظفر على ما يسكن رأســها من أشباح ؟.. لكى تسيطر على خيالها المريض ؟.. لكى تبين لها أنها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، فى حين أنها خاطئة ؟!.. ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هى الا الفكرة الثابتة التى تستبد بنفس تذوب .. ما هى الا التوجع الاخير يصدر من قلب حطمه الظلم الانسانى بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت فى هذا الحكم الظالم . « انك لا تحبنى » ، هذا ما قالته ، هذا ما أرادت أن تفهمك اياه . ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا

بلا رحمة . وداعا . اعفنى من سماع ايضاحاتك . ولكن انتبه ، اننى اعرفك حق المعرفة ، اننى أقرأ حقيقتك فى نفسك، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتى ، وانا لا اكاد اعى ماذا افعل . وفى اللحظة التى هممت فيها ان افتح الباب ، استوقفنى « أوفروف » - سكرتير بطرس الكسندروفتش - وهو يقول لى فى كثير من الاحترام والتعظيم :

- أحب أن أكلمك .

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم اجبته وانا امر أمامه :

- فيما بعد . اعذرنى الآن ، اننى مريضة أتألم .

فقال وهو ينحنى ويبتسم ابتسامة ذات معنى :

- حسنا . الى الغد ! (١)

تمت

---

(١) هكذا ختم « دستويفسكى » الرواية بهذه الخاتمة التى تكاد تبدو مبتورة ، مثيرة للحيرة والتأمل ، بحيث توحى كأنها تفصل بين مرحلتين من حياة بطلتها التى ترويها .. فهى - من ناحية - تسدل الستار على المرحلة الاولى ، مرحلة الطفولة ، واليتم ، والذكريات المريرة .. وهى - من الناحية الاخرى - ترفع الستار عن المرحلة الثانية ، مرحلة الشباب ، والامل ، والتفتح للحياة .. وللحب !

رجال "أرامكو"



تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المناطق التى تحتوى على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجى هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

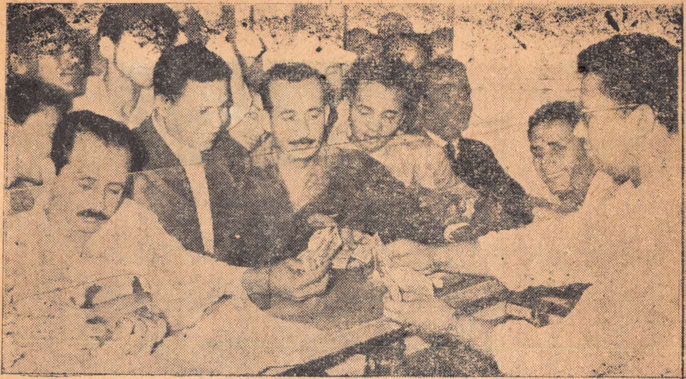
وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغاز من الزيت حتى اصبح مشغلا اعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فاصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط.

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد. وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية




الإشتراكية
حققت لك الأرباح
وصندوق توفير
بنك مصر
يضاعفها لك

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

قدمنا لك فى العدد ٤٨ من مطبوعات كتابى الترجمة الكاملة لقصة « فرانسواز ساجان » الرابعة : (هل تحبين برامز ؟)

وفى العدد القادم نقدم لك الترجمة الكاملة لقصتها الجديدة :

السحب الرائعة

أحدث ما كتبت فرانسواز ساجان

ترقب صدورها فى منتصف يونيو الحالى .


نحن نقرأ لك كل شهر عشرات الكتب
العالمية، القديمة والحديثة، كى ننتق
لك كتابا من أروعها نقدمه إليك فى
منتصف كل شهر بنصّه الكامل، فى
ترجمة دقيقة معتمدة مراجعة
دار "مطبوعات كتابى" المفخورة بأ
ظفرت برضائك فى أعدادها الماضية
فما هى تحفتها القادمة التى أعدتها لك؟
اقرأ التفصيلات فى الداخل
مطبوعات كتابى
يصدرها: حلمى مراد
الترجمة الكاملة الأمي
لشوامخ الكتب العالمي